ملحمة الحصان الأبيض

لمؤلفه: جي.كاي شيسكيريتون

اعداد وضبط وتنقيح: مكتبة نوافذ الحكمة





شعار المكتبة التي قامت بتنقيح هذا الكتاب

مقدمة المنقح:

من الصحيح أن الترجمة هذه المستعملة بواسطة الذكاء الاصطناعي غير دقيقة 100 بالمئة وغير مفهومة، لكن، نحن في عصر السرعة والمعلومات، والقارىء في عصرنا هذا لا يحتاج للتمعن بقدر ما يحتاج لمعلومة سريعة يكتسبها من كتاب ما أو من صحيفة معينة، وهذه الترجمة، كفيلة بأن تكسب القارىء الحديث معلومة سريعة، إذ أن الصيغة غير دقيقة 100% لكنها على الأقل مفهومة.

أما بالنسبة للقارىء العربي المتمعن بالشعر، فهذا الكتاب ليس مناسب له؛ لإن الشعر الإنجليزي يختلف عن الشعر العربي من ناحية التكوين والسجع والجناس وغيرها، كما أن هذا الكتاب أعد لغرض أن يكون نبعًا يُرتَشف منه معلومة سريعة لا دراسة معمقة ومفصلة.

ولذلك أترك للقارىء الحكم، وأضع هذا الكتاب بين يديه.

زيد العدوان (القائم على المكتبة)

للتواصل على الايميل التالي: zaidadwan@gmail.com

الفهرس:

ملاحظة تمهيدية

لا تحتاج هذه القصيدة الغنائية إلى أي ملاحظات تاريخية، لسبب بسيط هو أنها لا تدّعي أنها تاريخية. كل ما فيها، وإن لم يكن خياليًا صراحةً، كما هو الحال في أي رواية رومانسية نثرية عن الماضي، يُقصد به إبراز التراث لا التاريخ. الملك ألفريد ليس أسطورة بمعنى أن الملك آرثر قد يكون أسطورة؛ أي بمعنى أنه قد يكون كذبة. لكن الملك ألفريد أسطورة بهذا المعنى الأوسع والأكثر إنسانية، أي أن الأساطير هي أهم ما فيه.

كانت عبادة ألفريد عبادة شعبية، من ظلمات القرن التاسع إلى شفق القرن العشرين. أتناوله هنا كأسطورة شعبية بالكامل. أكتب كشخص جاهل بكل شيء، باستثناء أنني وجدت أسطورة ملك ويسيكس لا تزال حية في البلاد. سأقدم ثلاث أمثلة موجزة على ما أعنيه. هناك تقليد يربط النصر النهائي لألفريد بوادي في بيركشاير يُدعى وادي الحصان الأبيض. لقد رأيتُ شكوكًا حول هذا التقليد، وقد تكون شكوكًا وجيهة. لا أعرف متى أو أين بدأت القصة؛ يكفي أنها بدأت في مكان ما وانتهت بي؛ فأنا لا أسعى إلا للكتابة بناءً على رواية، كما فعل كتّاب القصص الشعبية القدامى. بالنسبة للحالة الثانية، هناك حكاية شائعة مفادها أن ألفريد عزف على القيثارة وغنى في المعسكر الدنماركي؛ اخترتها لأنها حكاية شائعة، أيًا كان وقت ظهورها. أما الحالة الثالثة، فهناك حكاية شائعة مفادها أن ألفريد التقى بامرأة وكعك؛ اخترتها لأنها حكاية شائعة، لأنها حكاية مبتذلة. وقد نوقشت من قبل مؤرخين جادين، والذين أعتقد أنهم كانوا جادين جدًا بحيث لا يستطيعون الحكم عليها جيدًا. التهمتان الرئيسيتان ضد القصة هما أنها سُجّلت لأول مرة بعد وفاة ألفريد بوقت طويل، وأن ألفريد (كما يُلحّ السيد أومان) لم يتجول قط وحيدًا دون أي ثانٍ أو جنود. قد يكون كلا الاعتراضين صحيحًا. لقد استغرقنا وقتًا طويلًا تقريبًا لمعرفة الحقيقة الكاملة عن بايرون، وربما وقتًا أطول لمعرفة الحقيقة الكاملة عن بيبس، مقارنةً بالفترة التي انقضت بين ألفريد والكتابة الأولى لمثل هذه الحكايات. أما الاعتراض الآخر، فهل يعتقد المؤرخون حقًا أن ألفريد بعد ويلتون، أو نابليون بعد ليبزيغ، لم يتجول في غابة بمفرده ولو لساعة أو ساعتين؟ قد تكفي عشر دقائق لجوهر القصة. لكنني لستُ معنيًا بإثبات صحة هذه التقاليد الشعبية. يكفيني التأكيد على أمرين: أنها تقاليد شعبية؛ وأنه لولا هذه التقاليد الشعبية لكنا اهتممنا بألفريد بقدر ما اهتممنا بإيدويج. هناك اعتبار آخر يحتاج إلى توضيح. لقد وصل إلينا ألفريد بأفضل صورة (أي من خلال الأساطير الوطنية) لنفس السبب الذي وصل إليه آرثر ورولان وغيرهما من عمالقة ذلك الظلام، لأنه حارب من أجل الحضارة المسيحية ضد العدمية الوثنية. ولكن بما أن هذا العمل قد تم بالفعل جيلاً بعد جيل، من قِبل الرومان قبل انسحابهم، ومن قِبل البريطانيين أثناء بقائهم، فقد لخّصتُ هذه الحملة الصليبية الأولى في رمز ثلاثي، وأعطيتُ لشخصية خيالية من روماني وسلت وساكسون، دورًا في مجد إيثاندون. أتخيل أن ويسيكس ألفريد كانت في الواقع من دماء مختلطة للغاية؛ ولكن على أي حال، فإن القيمة

الرئيسية للأسطورة هي خلط القرون مع الحفاظ على المشاعر؛ رؤية جميع العصور في نوع من الاختصار الرائع. هذا هو استخدام التقاليد: إنها تتداخل مع التاريخ.

جي. كي. سي.

إهداء

لأطراف عظيمة غرقت في الفوضى،

وجه عظيم تحول إلى ليل-

لماذا الانحناء فوق كفنٍ بلا شكل؟

باحثًا في سحابة عتيقة كهذه

عن مشهد أمراء أقوياء ونور؟

حيث تقبع سبع إنجلز غارقة

مدفونة واحدة تلو الأخرى،

لماذا يُعقل أن تُهزّ مجرفة واحدة غبار الثانات كالرعد

لتُدخّن وتُخنق الشمس؟

في سحابة من طين مُلقاة نحو السماء

أي شكل سيُدركه الإنسان؟

قد يُنير هؤلاء الأمراء سرّ السيادة أو النصر،

وهؤلاء يمتطون عاليًا في التاريخ،

لكنهم لن يعودوا.

مُطعون بسيف النورماندي

مات التنين الذهبي:

لن نستيقظ على أوتار الأغاني

الوقت الجميل للأشياء الصغيرة،

لن نرى الملوك المقدسين

يمتطون على جانب نهر سيفرن.

جامدة، غريبة، وغريبة الألوان

كتطريز بايو

إنجلترا ذلك الفجر باقية،
وقصة ألفريد والدنماركيين
تبدو كحكايات تدّعيها قبيلة بأكملها
إنجليزية جدًا لدرجة يصعب تصديقها.

2

عن ملكٍ صالح على جزيرة
حكم ذات مرة؛
وبينما كان يسير بجانب شجرة تفاح
خرجت شياطين خضراء من البحر
بنباتات بحرية تتدلى بغزارة
وآثار من مخاط الأوبال.
ومع ذلك، فإن ألفريد ليس حكاية خرافية؛
أيامه كما جرت أيامنا،
ونظر أيضًا لساعة
إلى سهول مأهولة وسماء منخفضة،
من تلك النوافذ القليلة في البرج
ذلك هو رأس رجل.
ولكن من سينظر من قلنسوة ألفريد
أو يتنفس أنفاسه حيًا؟
قرنه كسحابة داكنة صغيرة
ينجرف بعيدًا؛ إنه حشد بلا عيون،
حيث تصرخ الأبواق المعذبة بصوت عالٍ
وتنطلق السهام الكثيفة.

يا سيدتي، بضوء واحد فقط
ننظر من عيني ألفريد،
نعلم أنه رأى من وراء الحطام
العلامة المعلقة حول عنقكِ،
حيث يوجد من هو أعظم من ملكي صادق
مات ولن يموت أبدًا.
لذلك أحضر لكِ هذه القوافي
يا من أحضر لي الصليب،
فأنتِ متوهجة بلا عيب
رأيتُ العلامة التي رآها غوثروم
عندما حطم سفنه المهيبة،
وأقام السلام على البحر.
3
هل تتذكرين عندما ذهبنا
تحت قمر تنين،
ووسط ظلمات الليل البركانية
مشينا حيث خاضوا معركة مجهولة
ورأينا أشجارًا سوداء على قمة المعركة،
شوكة سوداء على إيثاندون؟
وفكرتُ: "سأذهب معكِ،
كما ذهب الإنسان مع الله،
وأتجول مع نجم هائم،
قلب الأشياء المتجول،

صليب الحب والحرب الناري

الذي مثلكِ، يستمر".

انطلق، فحيثما كنتَ

سيكون الشرف والضحك،

ما وراء الغابة الأرجوانية والزبد اللؤلؤي،

مظلة الله المجنحة تجوب بحرية،

وجهك، ذلك الوطن المتجول،

وطن طائر لي.

اركب عبر أراضي الزلزال الصامتة،

واسعة كوسع الخراب،

عبر هذه الأيام كالصحاري، حيث

جفت الكبرياء وقلمٌ صغيرٌ يخدش

قلوب الرجال،

اركب يا قلب الأبطال.

اصعد عبر بيتٍ فارغٍ من النجوم،

كونك ما أنت عليه،

اصعد منحدرات الفضاء اللاإنسانية

كما على درجٍ تصعد في نعمة،

حاملاً ضوء النار على وجهك

ما وراء النجم الأكثر وحدة.

4

خذ هذه؛ في ذكرى الساعة

ابتعدنا مسافةً عن الوطن

ورأينا القرى ذات اللون الدخاني، الخلابة
مع ملك ويستلاند وقديس ويستلاند،
وشاهدنا المجد الغربي يتلاشى
على طول الطريق إلى فروم.

الكتاب الأول: رؤيا الملك

قبل أن ترى الآلهة التي خلقت الآلهة شروق شمسها يمر،
انقطع الحصان الأبيض في وادي الحصان الأبيض من العشب.
قبل أن تشرب الآلهة التي خلقت الآلهة حتى ارتوت عند الفجر،
كان الحصان الأبيض في وادي الحصان الأبيض شاحبًا على التل.
عصورٌ سحيقة على أرض بريطانيا،
عصورٌ سحيقة مضت،
ساد السلام والحرب في التلال الغربية،
وكان الحصان الأبيض يراقب.
لأن الحصان الأبيض عرف إنجلترا
حين لم يكن هناك من يعلم؛
رأى المجداف الأول ينكسر أو ينحني،
رأى السماء تسقط ونهاية العالم،
يا إلهي، كم مضى من الزمن.
لأن نهاية العالم كانت منذ زمن بعيد،
وكل ما نسكنه اليوم
كأبناء ولادة ثانية،
كشعب غريب تُرك على الأرض
بعد يوم القيامة.
لأن نهاية العالم كانت منذ زمن بعيد،
عندما تحررت أقاصي الأرض،
عندما غرقت روما في ضياع العبيد،
وغرقت الشمس في البحر.

6

عندما غابت شمس قيصر من السماء
ومن أنصت جيدًا
لم يسمع إلا هدير
الأمم في الليل.
عندما دخلت أقاصي الأرض زاحفة
لتتوهج وتتألق.
وامتلأت طرق العالم المؤدية إلى روما
بوجوه تتحرك كالزبد،
كوجوه في حلم.
وركب الرجال من الأراضي الشرقية،
نهرًا عريضًا وسهلًا مشتعلًا؛
أشجارًا كأزهار تيتان،
وسماواها كأزهار النمر، مخططة بشكل فظيع،
بظلال من مطر استوائي.
حيث تشرق قمم الهند المطلية
حول ذلك الباطن،
حيث تتجمع النسور القديمة على حافته،
شاسعة كرؤساء الملائكة، وترتشف
سرّ الشمس.
وينطلق الرجال من الأراضي الشمالية،
أراضٍ شاسعة وحدها،
حيث تُلقى تعويذة على الحياة والشهوة

ويتحول المطر إلى غبار فضي
ويتحول البحر إلى حجر أخضر عظيم.
وشكل يتحرك في عتمة
في مرايا الجليد والليل،
يبيض من الخوف جميع الوحوش والطيور،
كما يبيض الموت وصدمة الكلمات الشريرة
شعر الرجل.

7

وصراخ النخيل والأقمار الأرجوانية،
أو صراخ الصقيع والزبد،
يدور حول أعمق مكان،
وضجيج سباقات بعيدة تلو الأخرى
يصرخ ويرد حول روما. وحلّ الموت على الإمبراطور
وحلّ الليل على البابا:
وألفريد، مختبئًا في العشب الكثيف،
قسّي قلبه بالأمل.
انتشر بحارة أشدّ عمى من البحر
في جميع أنحاء أرضه،
لكن ألفريد نهض أمامهم عاري الصدر
وتشبّث بالأرض وتمسك بالهواء،
وترنّح، وجاهد ليقف.
ردّهم بالرمح والمجرفة،
وبسدّ وجدار يائسين،

وبأعداء متكئين على درعه

وزئير عليه وهو يترنّح؛

ولم تأتِه أي مساعدة على الإطلاق.

سحقهم بسيف مكسور

قليلًا نحو البحر،

ولساعة من السلام اللاهث،

مُحاطًا بزئير لا ينقطع،

بتاج ذهبي وصوف مُشَحَّد

سنّ قوانين تحت شجرة.

جاب أهل الشمال أرضنا

فروسية بلا مسيح:

لم يعرفوا القوس ولا القلم،

رجال عظماء، جميلون، أغبياء

من شروق الشمس والبحر.

8

سفن مشوهة وقفت في الأعماق

ممتلئة بذهب غريب ونار،

ورجال مشعرون، ضخام كالخطيئة

برؤوس مقرونة، دخلوا

عبر مستنقع البحر الطويل والمنخفض.

اهتزت مدننا من ملوك طوال القامة

بلحى قرمزية كالدم:

أصبح العالم فارغًا حيث وطئوا،

أخذوا صليب الله الكريم

وقطعوه خشبًا.

كانت أرواحهم تجرف كالبحر،

وكل المدن والأراضي الطيبة

لم يروا إلا بعيون ثقيلة،

وانكسروا بأيدٍ ثقيلة،

كانت آلهتهم أشد حزنًا من البحر،

آلهة إرادة تائهة،

تصرخ طلبًا للدم كالوحوش في الليل،

بحزن، من تل إلى تل. بدوا كأشجار تمشي على الأرض،

غبية وطويلة،

ومع ذلك تشبثوا بالسماء

ولم يأتِهم عونٌ على الإطلاق.

تكاثروا كالطيور في الغابات الإنجليزية،

وتجذروا كالوردة،

عندما جاء ألفريد إلى أثيلني

ليخفيه عن أقواسهم

لم يبقَ درعٌ إنجليزي،

ولا أي شيء إنجليزي،

عندما جاء ألفريد إلى أثيلني

9

ليصبح ملكًا إنجليزيًا.

لأن زلزالًا يبتلع زلزالًا

يقطع شجرة ويسيكس؛
دوامةُ الهيمنة الوثنية
قد جرفته كالعصي
عندما يضرب الطوفان البحر.
وملوك ويسيكس العظماء
أُنهكوا وغرقوا في الدماء،
وحتى أشباحهم في ذلك الضيق الشديد
أصبحت أكثر شيبًا، أقل فأقل،
مع اللوردات الذين ماتوا في ليونيس
والملك الذي لن يأتي بعد الآن.
وإله التنين الذهبي
كان صامتًا على عرشه،
وسيد التنين الذهبي
يركض في الغابة وحيدًا.
وإذا صعد يومًا إلى قمة الحظ
ورفع الراية أمامه،
عائدًا كعودة العجلة،
جاء الخراب والمطر الحارق،
وبدأ كل شيء من جديد.
ولم يبقَ للملك ألفريد
إلا دموع الغضب المخزية،
في الجزيرة في النهر
في نهاية عمره.

في الجزيرة في النهر
كُسِر حتى ركبته:
وقرأ، مكتوبًا بقلم حديد،
أن الله قد سئم من رجال ويسيكس
وسلم بلادهم، حقولهم ومستنقعاتهم،
لشياطين البحر.
ورأى في صورة صغيرة،
ضئيلة وبعيدة،
أمه جالسة في قاعة إيغبرت،
وكتابًا أرته إياه، صغيرًا جدًا،
حيث جلست مريم من الياقوت الأزرق في حظيرتها
مع المسيح الذهبي يلعب.
لقد صُنعت على طريقة الراهب البطيئة، من الفضة والدم.
الجحيم،
حيث المشاهد صغيرة ومرعبة،
ثقوب مفاتيح الجنة والجحيم.
في جزيرة أثيلني النهرية،
مع النهر الجاري،
بألوان عقيدة بسيطة،
اندفعت إليه كل الأشياء، الشمس والأعشاب،
حتى أصبح العشب عشبًا حقًا
وأصبحت الشجرة شجرة أخيرًا.

نمت الأزهار في بساطة مخيفة،

ككتاب يقرأه طفل،

أو كوجه صديق يُرى في مرآة؛

نظر؛ وهناك كانت سيدتنا،

وقفت وداعبت العشب الطويل

كما داعب الرجل جواده.

كان وجهها ككلمة مفتوحة

عندما يتكلم الشجعان ويختارون،

كانت ألوان معطفها

أفضل من بشارة.

لم تتكلم، ولم تلتفت،

11

ولا أي إشارة ألقتها،

فقط وقفت منتصبة وحرة،

بين أزهار أثيلني،

والنهر الجاري.

جوهرةٌ رثةٌ باهتةٌ مُعلّقةٌ على درعه الرمادي المُهترئ، مزّقها وألقاها عند قدميها: حيث، بعد قرون، بأقدامٍ بطيئة، جاء الرجال من القاعة والمدرسة والشارع، ووجدوها حيث هي.

قال المتجول: "يا أمّ الله، ما أنا إلا ملكٌ عادي، ولن أسأل ما قد يسأله القديسون، ليروا سرًّا.

أبواب السماء أبوابٌ مُرعبة، أسوأ من أبواب الجحيم؛ لن أكسر الروعة المُغلقة، أو أسعى لمعرفة ما يحرسونه، وهو أروع من أن يُقال". لولا هذه الأرض البائسة،

هذه الأرض الصغيرة التي أعرفها،

لو كان ما هو أبدي،

أو لو انكسرت قلوبنا من النعيم،

برؤية الغريب يرحل؟

"عندما ينكسر قوسنا الأخير، أيتها الملكة،

ورمينا آخر رمح،

تحت سماء مسائية خضراء حزينة،

نحمل صليبًا مهدمًا عاليًا،

تحت عشب غربي دافئ،

هل نعود إلى ديارنا أخيرًا؟"

١٢

وجاء صوت بشري ولكنه عالٍ،

ككوخ متسلق بين

السحب؛ أو عبد كوخ وحظيرة

يجلس بجانب نار كوخه كما كان يفعل دائمًا،

لكنه يسمع من سقفه العتيق العاري عاليًا

برج جرس يصدح بالغناء.

"أبواب السماء مغلقة بخفة،

لا نحرس مكتسباتنا،

قد يأتي عليّ أثقل غزال بسهولة

بصمت وفجأة

في زقاق.

"وأي فتاة صغيرة تمشي بأفكار طيبة، قد تكسر حراسة الملوك الثلاثة، وترى الأشياء العزيزة والمرعبة التي أخفيتها في قلبي.

"رحل الرجل الأكثر دناءة في الحقول الرمادية، خلف غروب الشمس، يسمع بين نجم وآخر، من خلال باب الظلام الموارب، المجلس، أقدم الأشياء، حديث الثلاثة في واحد.

"أبواب السماء مغلقة بخفة، لا نحرس ذهبنا، قد يقتلع الرجال جذورهم من حيث تبدأ العوالم، أو يقرأون اسم الخطيئة المجهولة؛ ولكن إن فشل أو انتصر، فلا يُقال لأحد صالح.

"قد ينطق رجال الشرق بالنجوم،

13

وتدل الأوقات والانتصارات،

لكن الرجال الذين وُسموا بصليب المسيح، يمشون في الظلام بفرح.

"قد يبحث رجال الشرق في المخطوطات

عن مصيرٍ أكيدٍ وشهرة،

لكن من يشربون دم الله

يُغنون لخزيهم.

يعرف الحكماء ما هو الشر

المكتوب في السماء،

يُزينون المصابيح الحزينة، ويلمسون خيوطًا حزينة،

يسمعون الأجنحة الأرجوانية الثقيلة،

حيث ملوك السرافيم المنسيون

لا يزالون يتآمرون على موت الله.

يعرف الحكماء كل الشرور

تحت الأشجار الملتوية،

حيث يشتاق المنحرفون في ملذاتهم

ويتعب الرجال من النبيذ الأخضر

ويملّون من البحار القرمزية.

لكنك أنت وكل أمثال المسيح
جاهلٌ وشجعان،
وتخوض حروبًا بالكاد تكسبها
ونفوسًا بالكاد تنقذها.
لا أقول لك شيئًا لراحتك،
بل، لا أقول شيئًا لرغبتك،
إلا أن السماء تزداد ظلامًا
والبحر يرتفع.
سيكون الليل عليك ثلاث ليالٍ،
والسماء درعًا حديديًا. هل لديك فرح بلا سبب،
١٤ نعم، وإيمان بلا رجاء؟
حتى وهي تتحدث لم تكن،
ولا هو نطق بكلمة،
سمع فقط، وهو واقف ساكنًا
تحت غطاء رأس الليل القديم المتمايل،
البحارة يحطمون الخشب
كالمدّ العالي من البحر.
لم يسمع سوى الوثنيين،
ذوي العيون الزرقاء الكئيبة،
يغنون عن شيء قاسٍ
فعله ملك عظيم مبتسم
في وضح النهار على سطح السفينة.
لم يسمع سوى الوثنيين،

ذوي العيون الزرقاء العمياء،
يغنون عن الأشياء المخزية التي تُرتكب
بين البحر المضاء بالشمس والشمس
عندما تُترك الأرض خلفها.

الكتاب الثاني: تجمع الزعماء

عبر القفار العاصفة، وصعد
انطلق ألفريد فوق الأهوار،
مُهتزًا من فرح العمالقة،
فرح بلا سبب.
في المنحدرات بعيدًا نحو الخلجان الغربية،
حيث لا تهب شجرة أبدًا،
غسل روحه في ريح الغرب
وجسده في البحر.
وشرع في تنظيم مشروباته،
وغنّى بصوت عالٍ قوانينه،
بسبب فرح العمالقة،
فرح بلا سبب.
ذهب الملك يجمع رجال ويسيكس،
كحبة من القش
القلة التي كانت على قيد الحياة للموت،
تضحك، كجماجم متناثرة ترقد
بعد معارك خاسرة تتجه نحو السماء
ضحكة أبدية.
ذهب الملك يجمع رجالًا مسيحيين،
كحنطة من القشرة؛
إلدريد، فرانكلين على البحر، ومارك، الرجل من إيطاليا، وكولان صاحب الشجرة المقدسة، من القبيلة القديمة في أوسك.

نبح الغراب عائدًا إلى دياره بثقل،
كان الغرب صافيًا ودافئًا،
وتصاعد دخان طعام المساء والراحة

١٦

كشجرة زرقاء بين الأشجار
عندما وصل إلى مزرعة إلدريد.
لكن مزرعة إلدريد كانت قد انهارت،
كعظام عجوز مشلولة،
وكانت أدوات إلدريد حمراء من الصدأ،
وعلى بئره قشرة خضراء،
وبرزت أشواك أرجوانية،
بين أحجار المطبخ.
لكن دخان وليمة طيبة
ارتفع إلى الأعلى أكثر فأكثر،
وكانت أبواب إلدريد متباعدة
للقدم المتسكعة أو العربة العاملة،
ووقف قلب إلدريد الكبير والأحمق
مفتوحًا كبابه.
كان إلدريد رجلاً جبارًا،
كتلةٍ من البراميل تُملأ،
وجهه كفرنٍ حالم،
وجسده تلٌّ سائر.
في حروب ويسيكس القديمة،

كان سيفه قد غُرز عميقًا،

لكن جميع أصدقائه، كما أشار وقال،

انكسروا أمام إثيلريد؛

وبين الشراب العميق والموتى،

غرق في النوم.

"لا تأت إليّ، أيها الملك ألفريد، إلا من أجل الجعة دائمًا:

لماذا تُذبح أيائلي البريئة؟

لأن الزعماء يصرخون من جديد:

كما في كل المعارك، سننتصر،

وفي كل المعارك نفشل؟

17

"لا تزال حروقك تُرعد وتُنبئ

بالتاج الذي لن يأتي أبدًا؛

يا صديقي، سأراقب الأمور المؤكدة،

الخنازير، والأقمار البطيئة كخواتم الفضة،

ونضوج البرقوق".

فأجاب ألفريد وهو يشرب،

وبجدية، بلا لوم،

"ولا أفتخر بحرق أو ملك،

ما أتحمله أقل شأناً،

ولكنه يأتي باسم أفضل.

"من فم والدة الإله،

أكثر من أبواب الهلاك،

أدعو حشد رجال ويسيكس

من قرية عشبية أو خندق أو وكر،

لينهاروا ويُنكسروا، يعلم الله متى،

ولكني رأيت لمن.

"من فم والدة الإله

ككلمة قصيرة آتي؛

لأني أجمع رجالاً مسيحيين

من أرصفة غارقة ومخاضة ومستنقع،

ليموتوا في معركة، يعلم الله متى،

والله، ولكني أعرف لماذا.

"وهذه كلمة مريم،

كلمة رغبة العالم

"لن تنالوا المزيد من الراحة،

إلا أن السماء تزداد ظلمة

ويرتفع البحر".

ثم ساد الصمت. وببطء، نهض سيد البحر والبر، كوحشٍ ضخمٍ يبحث عن الغموض، ١٨ ملأ الغرفة والشرفة والسماء،

ومن مسمارٍ مُشبَّكٍ بخيوط العنكبوت في الأعلى، استل سيفه الثقيل.

على هضاب البحر الصارخة،

انطلق ألفريد وحيدًا،

يُدير ظهره مرةً واحدةً فقط بعد أن أُغلق الباب،

يصرخ إلى إلدريد من فوق مؤخرته،

ليُحضر جميع الرماح إلى كوخ الحطاب

المُنحوت تحت حجر إغبرت.
وأدار ظهره وكسر السرخس،
وحارب عثّ الغسق،
وانطلق في طريقه بحثًا عن أصدقاء آخرين
أصدقاء سقطوا من جميع أنحاء العالم،
من روما التي تُرسل الغضب والغفران
ومن القبائل الرمادية في أوسك.
رأى آثار موتٍ هائلة
وصورًا كثيرةً من الهلاك،
ومنازلَ رمادٍ رماديةٍ قد زالت
وبيتَ راهبٍ أبيضَ كهيكلٍ عظمي
في سردابٍ أخضرٍ من المِقْبِض.
وفي قصورٍ رومانيةٍ كثيرة
تأكلُ الأرضُ وبلابُها،
ورأى أرصفةً ملونةً تغرقُ وتذبلُ
في الأزهار، والأعمدةُ العاصفةُ
كشبحِ شارعٍ.
لكنَّ النجومَ الباردةَ تجمعت
بين أشجارِ الصنوبرِ الباردةِ
قبل أن يكونَ في منتصفِ رحلتِهِ
عبرَ الخطوطِ الغربية.

19

واتسعَ الفجرُ الأبيضُ

قبل أن يصلَ إلى آخرِ شجرةِ صنوبرٍ،
حيثُ ماركُ، الرجلُ الإيطاليُّ،
لا يزالُ يُشيرُ إلى المسيحية.
كانت المزرعةُ الطويلةُ تقعُ على سفحِ التلِّ الكبير،
مسطحةً كخريطةٍ مرسومةٍ،
وإلى جانبِها البيتُ الأبيضُ المنخفضُ،
حيثُ سكنَ رجلُ الجنوب.
رجلٌ برونزي، بعينٍ لامعةٍ كعين طائر، ومنقارٍ وجبهتين قويتين كطائر،
بشرته بنيةٌ كالذهب المدفون،
وقيل عن بعض آبائه
أنهم جاؤوا في سفينةٍ قديمةٍ لامعة،
وقيصر في مقدمتها.
امتدت أشجار ثمرته كالجنود
محفورةً في خطٍّ مستقيم،
ولم تذبل أشجار زيتونه الغريبة الصلبة،
وشرب جميع ملوك الأرض الجعة،
أما هو فكان يشرب الخمر.
واسعةً فوق السهول البريطانية القاحلة
لم ينتصب قوسٌ أو قبةٌ قط،
فقط الأشجار تتقاذفها وتدور،
والقبائل تتجادل، والوحوش تصرخ؛
لكن عينيه كانتا قويتين كالفولاذ،
وتذكرت روحه روما.

ثم رفع ألفريد الرمح الوحيد
رأسه كأسده؛
وأمام نظر الإيطالي،
سأله عن مصدره وسببه،
وقف الملك ألفريد وقال:

20

"أنا ذلك الملك المهزوم كثيرًا،
الذي ملأ فشله البلاد،
الذي هرب من الدنماركيين قديمًا،
وتاجر معهم بالذهب،
والذي الآن على أرض ويسيكس
لا يكاد يقف على قدميه.
يا والدة الإله
لقد رأيتُ الحقيقة كالنار،
هذا - أن السماء تزداد ظلمةً
والبحر يعلو.
طالما نظر الروماني إلى الأرض؛
الأشجار كتيجان ذهبية
متوهجة، غارقة في الفجر، ومزينة بقطرات الندى
بينما هي باهتة اللون، ملتفة حديثًا،
السحب من تحت الأرض
تنتصب فوق التلال.
قال: "هذه الكروم حبال تجرني بقوة. لن أذهب بعيدًا؛

أين ستلتقيان؟ إذ يجب أن تسيطرا على

نصف ويلتشير وويلتشاير والحصان الأبيض،

وضفة نهر التايمز حتى أوسينفولد،

إذا خاضت ويسيكس الحرب.

غوثروم صامد على كلا الضفتين

ويجب أن تضغطا على خطوطه

إلى الداخل، وتدفعاه شرقًا؛

أشك في أنكما ستأخذان التاج

حتى تستوليا على مدينة لندن.

بالنسبة لي، الكروم معي".

قال ألفريد: "لو التقى كل إنسان يوم القيامة بالله وحده في سهل، فسأتحدث نيابةً عنك، وأقولها عني، وأُقرّ بأنك جلبت كل من عرفت من المقاتلين إلى حتفه تحت حجر إغبرت. حتى لو كنتُ في التراب قبل ذلك الحين، فأنا أعرف أين ستكون." وفجأةً، حمل رمحه على كتفه، فتلاشى كجنّيٍ يخشى الهلاك، حيث امتدت أشجار الصنوبر الطويلة، صفًا تلو الآخر، شجرةً تسقط فوق شجرة.

حمل رمحه على كتفه في الصباح، وضحك ليضعه،

لكنه اتكأ على رمحه كما على عصا،

بقوةٍ وقليلٍ من الضحك،

أو لم يرَ قطةً أو عجلًا

من كولان كارليون.

لأن الرجل سكن في أرضٍ ضائعة

من الصخور والرجال المنهكين،

في كهفٍ رماديٍّ كبيرٍ بعيدًا جنوبًا

حيث سدت غابةٌ خضراء كثيفةٌ فمه،

مُعطيةً الظلامَ في عرينه.
وخرج الرجل كالظل،
من ظل أشجار الدرويد،
حيث أوسك، بهمساتٍ قوية،
ماضٍ من كارليون، ملك الملوك الساقطين،
يخرج إلى بحارٍ شبحية.
آخرُ جيلٍ في حالةٍ من الدمار-
تحدث بلغة الغيل؛
كان أقاربه في أيرلندا المقدسة،
22
أو في سفوح ويلز.
لكن روحه سكنت مع أهل أمه،
الذين كانوا من الجزيرة التي غطاها المطر،
حيث أطل باتريك وبراندان غربًا
أخيرًا على بحر بلا أرض
وآخر ابتسامة للشمس.
كانت قيثارته منحوتة وماكرة،
كما يصنع الحرفي السلتي،
محفورة في كل مكان بأشكال ملتوية
كأفاعي بلا رؤوس.
كانت قيثارته منحوتة وماكرة،
وسيفه حاد وسريع،
وكان مرحًا عندما أمسك السيف،

حزينًا عندما أمسك القيثارة.

لأن الغيل الأيرلنديين العظماء

هم الرجال الذين جنّ جنونهم،

فجميع حروبهم مرحة،

وكل أغانيهم حزينة.

حافظ على النظام الروماني،

وصنع العلامة المسيحية؛

لكن عينيه كثيرًا ما أصبحتا عمياء ومشرقتين،

والبحر الذي يرتفع في الصخور ليلًا

يرتفع إلى رأسه كالنبيذ.

صنع العلامة من صليب الله، كان يعرف الصلاة الرومانية، لكن كان في قلبه جهلٌ بسبب الآلهة الموجودة.

حتى أولئك الذين ساروا على المنحدرات العالية،

23

عاليًا كالغيوم آنذاك،

آلهةٌ ذات جمالٍ لا يُطاق،

حطمت قلوب البشر.

وسواءً كان على مقعدٍ أو سرج،

سواءً بعبوسٍ أو ابتسامة،

سواءً كان في وليمةٍ أو قتال،

سمع ضجيج بحرٍ مجهولٍ

على جزيرةٍ مجهولة.

رافعًا اللبلاب الأخضر العظيم

ومُخفضًا الرمح العظيم،

قال أحدهم: "أنا ألفريد من ويسيكس،

وأنا ملكٌ مُهزوم".

فأجاب رجل الكهف،

وكانت عيناه نجمتي ازدراء،

"ولقد غُزِيَ ملوكٌ أفضلُ منكم

أو وُلِدَ آباؤكم.

"أي إلهة كانت أمك؟ وأي ذرية أنجبتك، حتى لا تموت مع أوثر وآرثر ولانسلوت؟

لكنك حين تفوز تتباهى وتتفاخر،

وحين تخسر تسب،

جيش من بدو شرق البلاد

ليس قويًا بما يكفي للفشل.

قال ألفريد دون غضب: "لا أجاهر ولا أسب، بل أجاء من سيدتنا درسًا،

هذا - أن السماء تزداد ظلمة

ويرتفع البحر عاليًا".

٢٤

ثم رفع كولان الشجرة المقدسة عرفه الأسود عاليًا،

وصرخ وهو ينهض بثبات:

"وإن كان البحر والسماء عدوين،

فسنروض البحر والسماء".

ابتسم ألفريد: "ابحثوا عن خرافة

أكثر رعبًا وإثارة للدهشة

من كل حكاياتكم البربرية المجنونة

حيث تقف السماء على رأسها؟

حكاية رجل ينظر إلى السماء التي طالما نظرت إليه؛ حكاية رجل يستطيع أن يبتلع بحرًا قد يبتلع السرافيم.

"أحضروا إلى الكوخ عند حجر إغبرت كل ما لديكم من سهام وأقواس".

وانطلق ألفريد مسرعًا،

وذهب كولان، صاحب الشجرة المقدسة، ببطء إلى كهفه.

الكتاب الثالث: قيثارة ألفريد

في شجرةٍ تثاءبت وانحنت

أُلقيت ممتلكات الملك القليلة،

كتابٌ مُعَفَّن، سطرًا تلو سطر،

وأسلحةٌ وقربةُ نبيذ،

وقيثارةٌ قديمةٌ مُفَكَّكة.

بجانب الشجرة المتثائبة في الشفق

حلَّ الملك سيفه،

وقطع جميع ممتلكاته عن القيثارة،

وهناك في الغابة الباردة الصامتة

دُوِّنَ وترٌ واحد.

ثم ضحك؛ وشاهد العصافير تلمع، والذباب الكئيب يزحف في أسراب، وسار أعزلًا فوق التلال، والقيثارة على ذراعه، حتى وصل إلى وادي الحصان الأبيض، ورأى عبر السهول، في الشفق عاليًا وبعيدًا وهابطًا، مثل مدرجات الجحيم النارية، نيران معسكر الدنماركيين - نيران الجيش العظيم - الذي كان مصنوعًا من رجال حديديين، الذين أضاءت أنوارهم من تدنيس المقدسات والازدراء - حول إنجلترا حمراء كالصباح، نيران فوق غلاستونبري ثورن - نيران مطفأة في مستنقع إيلي.

وبينما كان يمر بوادي الحصان الأبيض، رأى رقعة شاحبة وواسعة

الحصان العجوز المنقوش، الله أعلم متى،

26

بواسطة الآلهة أو الوحوش أو أي شيء آخر آنذاك

يسير عالمًا جديدًا بدلًا من البشر

ومخطوطًا على جانب التل.

وعندما وصل إلى وايت هورس داون، كان الحصان الأبيض العظيم رماديًا، لأنه لم يُنظف جيدًا من الأعشاب الضارة، وكان الأشنة والأشواك قادرة على الزحف والتغذي، لأن أعداء الوطن والعقيدة المستقرة قد هدموا الأعمال القديمة.

حدق الملك ألفريد بحزن شديد في الشوك والطحالب الرمادية، حتى تدحرج حشد من الدنماركيين بدروعهم ومناقيرهم، ثملين فوق قبة التل،

وعندما سمعوا قيثارته ومهارته،

جروه إلى مسرحهم.

وبينما كانوا يمرون عبر العشب الأخضر العالي،

زأروا كبحر أخضر عظيم؛

ولكن عندما وصلوا إلى نار المخيم الحمراء،

ساد الصمت فجأة.

وعندما صعدوا عبر القفار،

تمايلوا ذهابًا وإيابًا؛

ولكن عندما وصلوا إلى نار المخيم الحمراء،

وقفوا جميعًا في صف واحد.

لأن غوثروم، الذهبي في ضوء النار،

بابتسامة محفورة على شفتيه،

ولحيته ملتفة بدهاء،

كان غوثروم من بحر الشمال،

إمبراطور السفن-

مع ثلاثة إيرلات عظماء، الملك غوثروم

27

يتنقلون من نار إلى نار،

مع هارولد، ابن أخ الملك،

وأوجير صاحب الحجر والمقلاع،

وجني، عوده الذهبي ذو وتر

يتنهد كأي رغبة.

إيرلات الجيش العظيم

الذي لا يتعبه أي رجل مولود،

الذين ألسنة لهبهم القريبة منه أو البعيدة

تتشبث بأبراج أو جدران حصينة،

نار فوق سقف غلاستونبري

وعلى إيلي، نار.

وسمع غوثروم حكاية الجنود

وأمر الغريب بالعزف؛

ليس بقسوة، بل كشخص في الأعلى،

على عمود رخامي في السماء،

يرى كل من يعيش ويموت-

قزمًا وبعيدًا.

وألفريد، ملك وسكس، نظر إلى فاتحه - فتصلبت يداه؛ لكنه عزف، تاركًا كل الأحقاد اللاحقة دون أن يُنطق بها،

وغنّى عن غارة بريطانية قديمة

على زحف الغرب المتوحش في الماضي.

وغنّى عن الحرب في المقاطعات الدافئة الرطبة،

حيث لا ينقطع المطر ولا الثمر،

حيث تتعمق إنجلترا ذات الولايات المتنوعة

كحديقة حتى البوابات

في أسوار ويلز الأرجوانية.

وغنّى عن بحار الرؤوس المتوحشة

وبحار الرماح،

28

تغلي في جميع أنحاء سد أوفا،

في أي وقت يمكن أن تضرب فيه هراوة وسكس

ملوك الجبال.

حتى ضحك هارولد وانتزع القيثارة،

قريب الملك،

شابٌ ضخم، بلا لحية كطفل،

أثاره نبيذ الحرب الجديد،

ضربه وبدأ يغني-

ونادى على السفن كالنسور

التي تحلق بشراسة وتطير،

وتكتسح البحار وتضرب المدن

من قبرص إلى سكاي.

ما أسرعها وبأشد المخاطر

تجمع كل الخيرات،

قرون وحوش الغابة العالية،

أو أحجار الملوك الخفية.

"لأن روما قد أُعطيت لحكم العالم،

ولم تحظَ منه إلا بالقليل من الفرح-

أما نحن، فسنستمتع بالعالم،

العالم الضخم كله لعبة.

"نبيذ عظيم كدم بورغندي،

عباءات كغيوم صور،

ورخام كضوء القمر الصلب،

وذهب كالنار المتجمدة.

"روائحُ قد يتجرعها الرجل في كأس، وحجارةٌ قد يأكلها الرجل، ونساءٌ ناعساتٌ كالعاج، يبيعه الأتراك في الشارع.

29

غنّى أغنية سارق الدنيا،

والآلهة التي تحبّ السارق؛

وصاح بصوتٍ عالٍ في ساحات الأديرة،

حيث يذهب الرجال يجمعون الأحزان.

"أحسنتَ غناءً يا غريب،

عن الموت على سد ويلز،

وكان زعيمك مانحًا للأساور؛

لكن النهر الأحمر المتصل

عن سباقٍ لا يدوم،

بل ينقطع فجأةً.

"لا شكّ أن آباءك كانوا يتأرجحون بالسيوف

عندما خاضوا وهم طريّون من الزبد،

قبل أن يتحولوا إلى نساء

بفضل إله المسامير من روما؛

" "ولكن بما أنك انحنيت إلى الرجال الحليقين، الذين لا يشتهون ولا يضربون، يا رعد ثور، فإننا نصطادك أرنبًا على مرتفع الجبل".

ابتسم الملك غوثروم قليلًا،

وقال: "يكفي يا ابن أخي، دع الجان يُعيد ضبط الوتر؛

يحتاج الصبي إلى زمجرة كالزئير،

لكن آذان الملك المسنّة تُسعد بأغاني أقل خشونة".

كان الجان المغني ذو العيون الزرقاء،

بشعر أنثوي وخاتم،

مع أن يده كانت ثقيلة على السيف،

مع أنها كانت خفيفة على الوتر.

وعندما كان يُحرك أوتار القيثارة

إلى أربع أو خمس نغمات فقط،

تحرك قلب كل رجل فيه

كطفل دُفن حيًا.

وشعروا بأرض الأغاني الشعبية

تمتد جنوب الدانمرك،

وسمعوا نهر الراين الطيب يتدفق

في القلب

من كل ألمانيا.

شعروا بأرض الأغاني الشعبية،

حيث تُعلق الهدايا على الشجرة،

حيث تُقدم الفتيات البيرة في الصباح

وتنهمر الدموع بسهولة.
الشعب العظيم، كالنساء،
يتلذذ بألمه
كما غنى عن بالدر الجميل،
الذي أحبته السماوات عبثًا.
كما غنى عن بالدر الجميل،
الذي لم تستطع السماوات إنقاذه،
حتى أصبح العالم كبحر من الدموع
وكل روح موجة.
"هناك دائمًا شيء يُنسى
عندما يسير العالم كله على ما يرام؛
شيء يُنسى، منذ زمن بعيد،
عندما نسي الآلهة الهدال،
وصامتًا كسهم من الثلج
سقط سهم الضيق.
"الشيء على الجانب الأعمى من القلب،
على الجانب الخطأ من الباب،
ينمو النبات الأخضر، مُهددًا
العشاق الأقوياء في الربيع؛
"٣١
هناك دائمًا شيء منسي،
والحب ليس آمنًا.
وكان كل الجالسين بجانب النار حزينين،

إلا أوجييه، الذي كان صارمًا،
وكانت عيناه قاسيتين كالحجر،
وهو يعزف على القيثارة بدوره؛
كان إيرل أوجييه، صاحب الحجر والمقلاع
غريب الأطوار للسمع والبصر،
كان عجوزًا، لكن شعره كان أحمر،
وكانت النكات كل ما يقوله
ومع ذلك كان حزينًا على المائدة والفراش
ومتوحشًا في القتال.
"تغني عن الآلهة الشابة بسهولة
في أيام شبابك؛
لكنني أشم رائحة الطقسوس والأعشاب،
وأعلم أن هناك آلهة وراء الآلهة،
آلهة من الأفضل ألا تُغنى.
" "ويصبح الرجل قبيحًا من أجل النساء، ويصير الرجل باهتًا من الجعة،
حسنًا إن وجد في روحه أخيرًا غضبًا، فهذا لن يخيب.
"غضب الآلهة خلف الآلهة
الذين يريدون تمزيق جميع الآلهة والبشر،
حسنًا إن كان قلب الرجل العجوز لا يزال
عجلات الغضب تتسارع والإرادة الهادرة،
مثل الشلالات تنهار وتقتل،
حسنًا للرجل العجوز إذًا-
"ما دام هناك ضريح طويل يهتز،

أو رجل حي واحد يمزقه؛

32

لغضب الآلهة خلف الآلهة
الذين تعبوا من وضع حد.
"تعيش لحظة واحدة للرجل
عندما يهتز الباب عند كتفه،
عندما ينقطع الحبل المشدود تحت السحب،
وأبسط غصن جميل
لحظة واحدة، بينما ينكسر.
"هكذا تركب روحي على البحر
الذي يشرب عواء السفن،
مع أنه ينحني ويومئ في مزحة سوداء
تحت الأقمار بقضبان فضية،
أعلم أنه يزأر للآلهة،
ينتظر الكسوف الأخير.
وفي الكسوف الأخير،
سينهض البحر كبرج،
فوق كل الأقمار المظلمة والممزقة،
يرفع رأسه المزبد في السماء،
ويضحك، عالمًا بساعته.
والعلياء في المدينة السعيدة
المدعومين بالكواكب السبعة،
سيعرفون نورًا جديدًا في عقولهم،

ضجيجًا حولهم وخلفهم،
سيسمعون صوتًا رهيبًا، ويجدون
رغوة في باحات السماء.
وأنت يا من تجلس بجانب النار شاب،
والحب الحقيقي ينتظرك؛
لكنني والملك نكبر، نكبر،
والكراهية وحدها هي الحقيقة.
وهزّ غوثروم رأسه لكنه ابتسم،
33
لأنه كان كاتبًا عظيمًا،
وقرأ سطورًا في الكتب اللاتينية
عندما كان الشمال كله مظلمًا.
قال: "أنا أكبر منك سنًا يا أوجبيه؛
لن أمزق كل شيء،
فسواءً أكانت الحياة سيئة أم جيدة،
فمن الأفضل أن أتحمل النهاية".
أخذ القيثارة العظيمة بتعب،
حتى غوثروم الدنماركي،
بعيون واسعة لامعة كيوم طويل واحد
على السهول القطبية الطويلة.
لأنه غنى عن عجلة عائدة،
وعادت الوحل إلى الوحل،
وكم هي جحيم أحمر وسماء ذهبية

قلاع في النار.

"من الجيد أن تجلس حيث تذهب الحكايات الجميلة،

أن تجلس كما جلس آباؤنا؛

ولكن ستأتي الساعة بعد شبابه،

حين لا يعرف الرجل الحكايات بل الحقيقة،

ويخفق قلبه عندها.

"عندما يقرأ ما هو مكتوب

واضحٌ في الغيوم والثلوج،

عندما يجوع بلا أمل

حتى للآلهة الشريرة.

"لأن هذا أمرٌ ثقيل،

والحقيقة باردةٌ للقول؛

ألا نعلم، ألم نسمع،

الروح كطائرٍ ضائع،

والجسد كصدفةٍ مكسورة.

34

"ويأمل الإنسان، جاهلاً،

حتى يجد في غابةٍ بيضاءٍ مُنعزلةٍ

الطائرَ الضائعَ ميتًا:

ويظلُّ الإنسانُ يرفع رأسه

ولكن قلبه لن يعود أبدًا.

"لا صوتَ إلا البكاء

من السماءِ القديمة،

ودمعٌ في أصغر زهرةٍ

لأن الآلهةَ لا بد أن تموت.

"الجداول الصغيرة حلوةٌ جدًا،

كشرائط فتاةٍ ملتفة،

لكن البحر العظيم مُرّ

يغمر العالم أجمع.

"الورود الرومانية قوية،

أو أزهار الخلنج الحرة،

لكن كل زهرة، كزهرة البحر،

تفوح منها رائحة ملح الموت.

وقلب المعركة المحتدمة

هو أسعد مكانٍ للبشر؛

عندما تمرُّ النفوس الصارخة كالسهام

ويموت الكثيرون وقد يموت الجميع؛

وإن كانت هذه الكلمة لغزًا،

فإن الموت أبعد ما يكون.

"يتوهج الموت ساطعًا فوق الكأس،

وواضحًا فوق التاج؛

لكن في حلم المعركة ذاك

يبدو أننا ندوسه.

"لذلك أنا ملكٌ عظيم،

35

وأُبدِّد العالم عبثًا،

لأن الإنسان لا يملك سلطةً أخرى،
إلا أنه في تقديم الموت مقابل المهر،
قد ينساه ساعةً
ليتذكره من جديد".
وسقطت يداه ببطءٍ وتأملٍ من القيثارة المرفوعة،
وأنّ البوم من الأشجار الشامخة،
حتى أمسكها ألفريد على ركبتيه،
وضربها كأنها في غضب.
رفع رأس القيثارة عالياً،
وضرب إطارها،
فأحدثت ضربته خشخشةً وشرارةً كالخيول الطائرة بقوة.
"عندما وضع الله الإنسان في حديقة،
شدّه بالسيف، وأرسل إليه فارسًا حرًا قد يخون سيده؛
"كسره وخانه،
وسقط سقطة ساحقة،
حتى نمدد أنا وأنت أعناقنا
ونحرق لحانا في الجحيم.
"لكن حتى لو كنتُ مستلقيًا على أرض العالم،
مع الخطايا السبع كقضبان،
أُفضّل السقوط مع آدم على النهوض مع آلهتكم جميعًا.
"ماذا أعطت الآلهة الأقوياء؟
إلى أين قادت الآلهة المبتهجة؟
عندما يجلس غوثروم على عرش البطل

36

ويسأل إن كان قد مات؟

"يا سادة، ما أنا إلا رجل بلا اسم،

شاعر بلا وطن،

ومع ذلك، منذ أن جئت من طين ويسيكس

وحملت صليب روما،

"سأجيب حتى الإيرل العظيم

الذي سأل رجال ويسيكس

لماذا يكونون شعبًا ودعاءً ورهبانًا،

وينحنون لنير السيد الأبيض المكسور؛

فما الدليل الذي لدينا سوى الدم والدخان؟

إليكم جوابي إذًا.

"أن الظل سقط عليكم،

وليس على الاسم؛

وأننا وإن تشتتنا وهربنا،

وأنتم معلقون فوقنا كالسماء،

فأنتم أكثر تعبًا من النصر،

من تعبنا من العار.

"حتى وإن كنتَ تطارد المسيحي

كأرنب على سفح التل،

فإن الأرنب لديه من الشجاعة للركض

أكثر مما لديكَ من الشجاعة للركوب.

حتى وإن انقسمت عليكَ كل الرماح،

وذهبت كل السيوف سدىً،

فإننا نتوق للخسارة مجددًا

أكثر مما تتوق أنت للانتصار مجددًا.

سيدك يجلس عاليًا في السرج،

ملكًا منكسر القلب،

أما ملكنا ألفريد، فقد ضاع من الشهرة،

سقط بين الأعداء أو قيد العار،

37

لا أعرف في أي مهنة أو اسم حقير،

ما زال لديه أغنية يغنيها؛

رهباننا يمشون مرتدين ثياب المطر والثلج،

لكن قلبهم ملتهب،

أما أنتم فتمشون مرتدين ثياب الأعياد والنيران،

وكل شيء في الداخل جليد؛

ولن تُخرس كلُّ المصائر الحديدية رجالًا يتساءلون بلا انقطاع، إن كان الصوم فرحًا خيرًا من الوليمة شقاءً.

ولا النظام الرهباني وحده ينحدر، كما ينحدر الحقل إلى مستنقع،

وكلُّ ما أُنجز واختير يزول،

كما يذبل الحصان الأبيض في العشب،

ليس من عمل المسيحيين.

قبل أن ترى الآلهة الحزينة التي صنعت آلهتكم شروق شمسها الحزين يمر،

الحصان الأبيض في وادي الحصان الأبيض،

الذي تركتموه ليظلم ويفشل،

قُطع من العشب.

لذلك نهايتكم عليكم،

عليكم وعلى ملوككم،

ليس من أجل نار في مستنقع إيلي،

ليس لأن آلهتكم تسعة أو عشرة،

بل لأن المسيحيين وحدهم يحمون حتى الأشياء الوثنية.

"لأن إلهنا بارك الخليقة، واصفًا إياها بالخير. أعرف أي روحٍ تتحدون معها بلا مبالاة

38

باركت الدمار بيده؛

ولكن بموت الله ستقف النجوم

وتنمو التفاحات الصغيرة".

ووقف الملك، حاملاً قيثارته على كتفه،

وتوقف عن غنائه؛

وأنّت البوم من الأشجار الشامخة،

وضحك الدنماركيون بصوتٍ عالٍ وطويل.

الكتاب الرابع: المرأة في الغابة

رعدٌ كثيفٌ لخنزيرٍ يُشخر،

هائلٌ في العتمة،

يمزق كل الجذور الملتصقة،

وصهيلُ الخيول البرية،

كانت أصوات الليل حين عاد الملك

حاملاً قيثارته على كتفه إلى منزله.

بعيون بومةٍ وأقدام ثعلب،

ممتلئٌ بكل الأفكار ذهب؛

أشار إلى ميل معسكر الوثنيين،

وشحذ أشجار الصنوبر، ووطء الحراس،

ومصباح المذبح الكبير المسروق

فوق غوثروم في خيمته.

بجانب الشجيرات والأشواك في إيثاندون

في تلك الليلة كان العدو يرقد؛

ومن هناك اجتاز الخلنج الرمادي

الحجارة القديمة لطريق روماني؛

وفي غابةٍ ليست ببعيدة

انقسم الطريق الشاحب إلى قسمين.

رسم الغابة والطرق المشقوقة

بعيني قبطان عجوز،

وفكر كم مرةً حاول أن يرى الهلاك الذي لم يستطع رؤيته؛

كيف حل الخراب والنصر،

وكان كلاهما مفاجأة.
مع ذلك، راقب وتساءل
تحت أشداون من السهول؛
وإيثيلريد يصلي في خيمته،
حتى تأرجح الزعرور الأبيض وانحنى،
وألفريد يندفع برماحه ويمزق
جدار الدرع الدنماركي.
مع ذلك، راقب وتساءل،
لا يعرف أقل ولا أكثر،
حتى كان جميع أسياده يحتضرون،
والفؤوس تلو الفؤوس تنطلق،
تقذفه، وتدفعه طائرًا
كقرصان إلى الشاطئ.
كان حكيمًا قبل الهزيمة،
وحكيمًا قبل النجاح؛
حكيمًا في كل من الساعات وجاهلًا،
لا يعرف أكثر ولا أقل.
بينما كان ينزل إلى كوخ النهر، عرف رائحة ظل الليل،
وكانت البوم ترتفع كالملائكة الأشرار،
بأجنحة صغيرة وعيون فانوس،
كما لو كان يغرق في السماء السفلى؛
ولكنه كان يهبط ويهبط.

وبينما كان ينزل إلى كوخ النهر،

كان يهبط كشخص سقط؛

يرى قباب الغابة العالية وأعمدةها.

خضراء باهتة أو ممزقة بندوب ذهبية،

كما ينظر المتكبرون إلى النجوم الشريرة،

في سماء الجحيم الحمراء.

لأنه لا بد أن يلتقي عند كوخ النهر

بمن أمرهم بالتسليح،

مارك من أبراج إيطاليا،

وكولان الشجرة المقدسة،

وإلدريد الذي كان يمسك مزرعته بثقل بجانب البحر.

41

انحنى السقف فاغرًا على العشب،

كفطر وحشي يرقد؛

بدا المكان فارغًا ومترددًا؛

لكن في مساحة صغيرة، انفتحت امرأة رمادية ضخمة، بوجهٍ مليء بالندوب، وعينين قويتين متواضعتين.

كان الملك ألفريد رجلاً هزيلاً،

عينان لامعتان، لكنه نحيل وشاحب:

بلا سيف، مع قيثارته وخرقه،

بدا متسولاً، كالمتخلفين عن الركب

يبحث عن قشور الخبز والجعة.

والمرأة، بعينيها كعيني امرأة

مليئتين بالشفقة والغضب،

قالت، بعد أن حدقت شبراً:

"هناك كعكة لأي رجل

إذا راقب النار".

وانحنى ألفريد بشدة،

وأشعل النار ليحركها،

وكما أشفقت عليه المرأة، أشفق عليها هو أيضاً. يقول: "يا قلبًا عظيمًا في الليل، يا من تخلى عن الأفضل للأسوأ، سيذوب الشفق ويهبّ الصباح، ولن يأتيه خير، حتى يُقلب الله العالم رأسًا على عقب، ويصبح جميع السابقين أولين.

"ولعل الله يُحسن إلى الخدم الذين ألقوا في مصيره المروع؛

أليس هو أيضًا خادمًا،

42

ألم يُنسَ؟

"ألم يكن الله بستاني،

وصامتًا كالعبد؛

الذي فتح أشجار البلوط في المرتفعات

أو أعطى الأدغال في المقبرة؟

"ألم يكن الله صانع سلاحي،

صبورًا بلا أجر،

الذي ختم جمجمتي كخوذة،

وصنع أضلاعًا للدروع؟

"ألم يبنِ خادمٌ عظيمٌ رماديٌّ، من بين جميع آبائي وأنا، هذا السرداب من أشجار الصنوبر، ويرعى الطيور ويملأ الكروم، ويعمل ويمضي ولا يترك أثرًا سوى الرحمة والغموض؟

فالله خادمٌ عظيم، وقد نهض قبل النهار، من سباتٍ بدائيٍّ مُمزق؛

ولكننا جميعًا، نحن الأحياء الذين وُلِدنا لاحقًا، ننام ونستيقظ بعد الصباح،

وقد رحل الرب.

على الأشياء التي نهضت نصف نوم،

أشرقت كل الشموس النائمة،

ومدت أذرعًا متيبسة، والأشجار المتثائبة،

وترمش الوحوش على أيديها وركبها،

والإنسان مستيقظٌ يفعل ويرى-

لكن السماء فعلت وذهبت.

فمن سيُخمّن اللغز الجيد

أو يتحدث عن الأقدس،

43

إلا بأرقامٍ خافتة وكلماتٍ ضائعة،

من يُحب، ومع ذلك يضحك بين السيوف،

ويعمل، ويرتاح؟

لكن البعض يرى الله كغوثروم،

متوجًا، بلحية كثيفة ملتفة،

أما أنا فأراه كعملاق صالح،

يعمل جاهدًا ليرفع العالم.

لماذا كان الله في الجلجثة،

مُقتولًا كما يُقتل العبد؛

وكان يحمل كراهيةً للأمير والنظير،

وكان يحمل محبةً وأسعد،

من أولئك، مثل هذه المرأة هنا،

يُصابون بألمٍ شديد.

لكن في هذا الصباح الكئيب من حياة الإنسان،

يخطر بباله أحيانًا

ضوءٌ خافتٌ يقفز ويطير،

كنجمٍ في مهب الريح.

نجمٌ لا مكان له، نجمٌ مجهول،

ضوءٌ يدور ويدور،

ويصرخ أنه حتى في السياج والتلال،

حتى على الأرض، قد يُصاب بالسوء

أخيرًا مع الإيرلات الأشرار.

بريقٌ راقص، نجمٌ مريب،

على الريح القاحلة يدور ويدفع؛

لكنه يبدو وكأنه يُغني عن قيمةٍ أعنف،

زمنٌ مُنكرٌ بالهلاك والولادة،

ومملكة الفقراء على الأرض

تعال، كما هي في السماء.

"ولكن حتى لو استمرت هذه الأيام،

44

فماذا سينفعها؟

من سيذهب يئن إلى القبر،

مع كثيرٍ من العبيد الوديعين الأقوياء،

كاسري الحقول والصيادين على الأمواج،

والحطاب وسائق العربات.

"اخبزوا العالم الكبير من جديد
كعكةٍ بخميرةٍ ألطف؛
ومع ذلك، هؤلاء حزنٌ إلى الأبد-
إلا إذا كان هناك القليل من
يُصدر صوت الرعد.
وخنّت الماشية الرمادية والفضية
في فجرٍ غير مرفوع،
والتصق القش بسهام الرماح العالية.
وتقدمهم جميعًا صبيٌّ ينفخ في قرن كبش.
وسخرًا من هذا الاحتفال الوقح،
جاءت عشيرة الغيل الخافتة
كنهاية دفن ملكٍ فاسد،
بأرديةٍ كئيبةٍ تتساقط وتتمزق
ومزامير شيطانيةٍ تئن-
في ثيابٍ طويلةٍ غريبة،
ممزقةٍ، وإن كانت قديمة،
بلحى درويد ورماح درويد،
كعرقٍ بعث من أرضٍ قديمة.
ومع أن الملك قد استدعاهم
وعرفهم حق المعرفة،
إلا أن كل عينٍ منهم وقفت كجوهرة،
وتعلقت كل حافةٍ مطرزةٍ بطيف،
وتخيلهم رجالًا منحوتين رماديين،

منحوتين في عصرٍ من الحجر.
والوحشيان شعوب الشمال
وقفوا في مواجهة الظلام،
46
وسمعوا وعرفوا كل واحد منهم في قرارة نفسه
الرعد العظيم الثالث في الريح،
الجدران الحية التي تُسيّج البشرية،
جدران روما المتحركة.
ماركس كانت قبائل الغرب المختلطة،
متعددة الألوان والسلالات،
غورث، بشعر أشعث كالعشب الأصفر،
وصياد كورنيش، غورلياس،
وهالمر، قادمان من قداسه الأول،
مُعمّد حديثًا، وهو دانمركي.
ولكن كرجل واحد يرتدي درعًا
طأ هؤلاء المئات الحقل،
من شبه الجزيرة العربية الحمراء إلى نهر تاين
سمعت الأرض ذلك الخط المسير،
منذ الصراخ على تل الكابيتول،
وسقوط الدرع الذهبي.
واهتزت الأرض ووقف الملك ساكنًا
تحت غصن الخشب الأخضر،
وكانت الكعكة المدخنة عند قدميه

وكانت الضربة على جبينه.
ثم ضحك ألفريد فجأة،
كصوت رعد في الربيع،
حتى هزّت عوارض العتب بصوت عالٍ،
وتحركت السناجب في أحلام مغبرة،
وصعدت الطيور المذعورة في الجداول،
لضحك الملك.
ونظرت وحوش الأرض والطيور إلى أسفل،
في خشوعٍ عارم،
إلى مشهد أغرب من منظر السيلف أو الجان،
إلى رجل يضحك على نفسه
47
تحت شجرة الغابة الخضراء-
ضحكة المسيحيين الهائلة
التي تزأر عبر ألف حكاية،
حيث الجشع قرد والكبرياء حمار،
وجاك يرحل مع عشيقة سيده،
والبخيل يُضرب بكل نحاسه،
والمزارع بكل سوطه؛
حكايات تتعثر وحكايات خداعة،
لكنها لا تنتهي جميعها بالازدراء-
عن الملوك والمهرجين في مأزقٍ سعيد،
وأن الساعة قد ضاعت والعالم قد صلح،

التي يغني عليها المهزلون ليلة عيد الميلاد
وصباح يوم عيد الميلاد.
هتف ألفريد: "ها هنا ضمانة قوية، بسيفي؛ فمن يُضرب من أجل خادمٍ مريض
يجب أن يكون سيدًا كريمًا.
من كان خادمًا
يعرف أكثر من الكهنة والملوك،
أما من كان خادمًا مريضًا،
فهو يعرف كل شيء في الدنيا.
الكبرياء تُلقي بقصورٍ هشة في السماء،
كما يُلقي الإنسان رمالًا،
لكن أقدام التواضع الثابتة
تُمسك بالأرض الثقيلة.
الكبرياء يُداعب أبراجه المُنهارة،
تضرب الشمس فتتوقف،
أما أقدام التواضع الثابتة
تُمسك بالأرض كالأشجار.

48

من فشل في أي شيءٍ يسير
تظهر عليه علامة؛
وإيرلات الجيش العظيم
ليس لديهم مثل هذه العلامة.
"النقش الأحمر على جبهتي،
شعلة صغيرة لنجمة حمراء،

في قافلة المسيرة العنيفة، حينئذٍ
عندما تُمزّق السماء بعشرة أبواق،
وأيدي الرجال البوارح السعيدة
تفتح أبواب الحرب على مصراعيها.
"هذه الضربة التي لن أردها
عشر مرات سأردها
على الملوك والنبلاء من كل الطبقات،
وجيوش واسعة كالإمبراطوريات
ستنزلق كالانهيارات الأرضية إلى البحر
إذا احترق النجم الأحمر.
"رجل واحد سيقود مئة،
كما يقود الملوك الأموات؛
أمامي تُمزّق جيوشٌ تهتز،
وأفواجٌ ضاربةٌ تُدفع إلى الوراء،
لأني أول ملكٍ عُرف في السماء
ضرب كعبد.
"إلى أعلى الطريق الأبيض القديم، أيها الإخوة،
إلى أعلى الأسوار الرومانية!
"فهذه ليلةُ سحب السيوف،
وبرجُ جحافل الوثنيين المُلوث يميلُ إلى مطارقنا ونيراننا وأسلاكنا،
يميلُ قليلاً ويسقط.
"اتبعوا النجمَ الحيَّ النابض،

اتبعوا السيفَ المُنشد،
فإننا نمضي لجمعِ الوثنيين،
حصادٌ مُريع، عشرةً عشرة،
كغضبِ الخريفِ الأحمرِ الأخيرِ - حينئذٍ
حينَ يحصدُ المسيحُ الملوك.
"اتبعوا نورًا يقفزُ ويدور،
اتبعوا النارَ المُنفتحة!
لأنَّه ينهضُ ضدَّ العالَمِ والعصا،
شيءٌ منسيٌّ، شيءٌ مُنهك،
آخرُ عملاقٍ ضائع، حتى الله،
قد قامَ ضدَّ العالم".
هادرًا
صعدوا فوق السور الروماني،
وهديرهم صاعدًا في الممر،
ألقت مشاعلهم سلمًا من النار،
وسمع ترنيمهم أعلى فأعلى،
أكثر حلاوة للكراهية ولرغبة القلب،
وصعدوا في الشجيرات الشمالية والشوك،
وسقطوا على الدنماركي.

الكتاب الخامس. إيثاندون: الضربة الأولى

كان الملك غوثروم ملكًا مُرعبًا،
كأنه الموت قادم من الشمال؛
أضرحة بلا اسم أو رقم
مزقها ودار كخشب،
من تشيستر إلى هامبر
طرد أعداءه.
سمعته القصور الرومانية
في وادي نهر التايمز،
تعالَ فوق التلال هادرًا
فوق أسطحها، وسكب
على الأبراج والسلالم والأرضيات
الكبريت والزفت واللهب.
انحدر فوق المرتفعات الطباشيرية العظيمة
وامتد تل الحصان،
حتى أعالي منارات هامبشاير
رأى البحر الجنوبي.
على مرتفعات ويسيكس
رأى المحلول الملحي الجنوبي،
وحوّله إلى أرض محتلة،
وحيث تنتصب غابات الأشواك الشمالية،
وتتفرّع الطرق من كلا الجانبين،
أتت إليه إشارة.

كان الملك غوثروم قائدًا حربيًا، ورجلًا حكيمًا في الميدان، ومع أنه كان ناجحًا، وعرف
كم كان شعب ألفريد حزينًا وقليل العدد،
وبعناية بالغة، رسم
خطوطًا طويلة للرماح والدروع.

51

كان الملك غوثروم يرقد في الأراضي العليا،
على طريق واحد في الأفق،
ويجب أن يأتي عدوه بتشكيلة هزيل،
على طول الفرع الأيسر للطريق المشقوق،
إلى ملتقى الطرق.
وقبل صوت الدروع بوقت طويل،
قبل ساعة من بزوغ النور،
استيقظت الغابة على وقع الارتطام والصراخ،
وانطلقت الطيور صاخبةً عاليةً وقوية،
وركضت الأرانب كجيش من الجان
قبل أن يظهر ألفريد.
وصلت الغابة الحية إلى غوثروم،
على الأقدام والمخالب والأجنحة،
كانت الأعشاش صاخبة في السماء،
لألفريد والنجم الأحمر،
انبعثت الحياة كلها، وهربت الغابة
أمام وجه الملك.
لكنها توقفت في ممرات الغابة

كانت قلة المسيح قاتمة ورمادية،
وكلٌ منها بنظرة صغيرة بعيدة كنظرة الطائر
رأى حماقة القتال؛
ورغم أن أفراحًا غريبة نمت في الليل،
ازداد اليأس مع النهار.
وعندما تسلل الفجر الأبيض عبر الغابة،
كرغوة فيضان باردة،
أضعف مزاج كل محارب،
في الأمل، وإن لم يكن في الشجاعة؛
وحزن كل رجل وهو واقف
على طريقة دمه.

52

لأن فرانكلين الساكسوني حزن
على الأشياء الجميلة؛
على المرأة الميتة العزيزة، مرتدية القرمزي،
والأعياد العظيمة والأصدقاء الذين كان لديهم؛
لكن روح الأمير السلتي كانت حزينة
على أشياء لم تكن.
في عيون الإيطاليين كل شيء
لكن ضحكة سوداء ماتت؛
وطرح ألفريد درعه على الأرض
وضرب صدره وبكى-
"ظلمتُ رجلاً فقتلته،

وامرأةً فعارها،
ومرةً نظرتُ إلى عذراءٍ مقسمة
متزوجةً بالاسم المقدس.
"ومرةً أخذتُ زوجة جاري،
التي كانت مرتبطةً برجلٍ من شرق البلاد،
في قسوة شبابي الشرير،
قبل أن تبدأ أحزاني.
"أيها الناس، إن كانت لديكم أي صلوات،
صلوا من أجلي:
وادفنوني تحت حجرٍ مسيحي
في تلك الأرض الضائعة التي ظننتُها ملكي،
لأنتظر حتى يُنفخ في البوق المقدس،
ويتحرر جميع الفقراء".
ثم إلدريد من المزرعة الخاملة
اتكأ على سيفه القديم،
وسقطت كلماته الثقيلة والقليلة؛
وكانت عيناه زرقاوان غريبتان، كبريقٍ يبحر فيه الشمالي الجديد في مضيقٍ مجهول.

53

"كنتُ أحمقًا وأبذرُ البيرة-
وجدها عبيدي حلوة؛
كنتُ أحمقًا وأبذرُ الخبز،
وكان لدى الطيور خبزٌ تأكله.
"يصعد الملوك ويهبط الملوك،

ومن يدري من سيحكم؛
في الليلة التالية قد يجوع ملكٌ أو ينام،
لكن الرجال والطيور والوحوش ستبكي
على دفن أحمق.
يا أيها السكارى في قبوي،
يا أيها الصبية في شجرة تفاحي،
يزداد العالم قسوةً وغرابةً وحداثةً،
وسيحكمكم الحكماء،
وستبكون عليّ.
"لكن اربطوا لي ثيراني،
إلى مزرعتي؛
سينوح كلبي من أجلي،
سينحنِي أصدقائي،
والأعداء الذين قتلتهم علنًا
لم يتمنوا لي الشر قط".
وتأثر الجميع قليلاً،
لكن كولان وقف منعزلاً،
فأشفق أولاً، وبعد أن سمع، كفأرٍ في عوارض خشبية،
تلك الدودة الصغيرة من الضحك
التي تأكل قلب الأيرلندي.
وكانت عيناه الرماديتان الخضراوان قاسيتين،
وابتسامته تتسع،
وقال: "ومتى أصبحت بريطانيا

54

مدفنكم؟

"قبل أن يُنير الرومان الأرض،

عندما لم تكن هناك مدارس ولا رهبان،

رفعنا لإله الشمس أحجاراً

قد تُطفئ الشمس.

"أشجار بريطانيا الشامخة

كنا نعبدها وكنا حكماء،

لكنكم ستغزون الأرض كلها

ولن تُكلّمكم شجرة واحدة،

مع أن كل ورقة لسانٌ يُعلّم الصدق

والغابة مليئة بالعيون.

"على تلة مستديرة باتجاه البحر، تنمو الأشجار شامخة رمادية، وتتحدث الأشجار معًا، بينما يغيب الناس.

على تلال مستديرة منسية، تنمو الأشجار شامخة في حلقات، وتتحدث الأشجار معًا، عن وثنيات كثيرة.

ومع ذلك، أستطيع أن أكذب وأستمع، وأنا أضع صليبًا على طينتي، وأسمع دون أن أتعرض للأذى إلى الأبد، ما تقوله أشجار بريطانيا.

كان الروماني رجلاً فخورًا،

كلامه واحد،

لكن عينيه كعيني نسر، يحدقان في الشمس.

قال: "احفروا لي حيث أموت،"

55

"إذا سقطتُ أولًا أو آخرًا-

ميتًا على الأرض عند أول هجمة،

أو ميتًا على جدار وانتاج؛

لا ترفعوا رأسي عن الأرض الدامية،

لا تحملوا جسدي إلى الوطن،

فكل الأرض أرض رومانية،

وسأموت في روما".

ثم أمر ألفريد، ملك إنجلترا، بنفخ أبواق الحرب، وإلقاء التنين الذهبي، مع الهتاف والهتاف، مدويًا ومشتعلًا

وبعيدًا.

وتحت التنين الذهبي

امتدت ويسيكس طوال الطريق،

متجاوزةً منحدرات الطرق المشقوقة،

خارجةً من الغابة السوداء إلى لهيب الشمس والفولاذ والأغاني.

وعندما وصلوا إلى الأرض المفتوحة

داروا وانتشروا ووقفوا؛

في المنتصف ماركوس والملك،

وإلدريد على الجناح الأيمن،

وكولان المظلم على اليسار،

في آخر ظلال الغابة.

أما إيرلات الجيش العظيم

فتمددوا كهلال طويل،

عشرة أعمدة أمام أسوارهم،

بخوذات عريضة الأجنحة وسيوف رونية

عمالقة حمر من عصر الغارات،

في أرض إيثاندون الشائكة.

56

في المنتصف ارتفعت السروج وتمايلت،

وحركة أعراف الخيول،

حيث ركب غوثروم وبعضهم عاليًا

على خيول غُنِّمت منتصرة؛

لكن أوجبيه سار ليموت، على طريقة الدنماركيين القديمة.

على يسار الملك، كان الجان الشاعر

يقود الجناح الشرقي

بأغاني وتعاويذ تُغير مجرى الدم؛

وعلى يمين الملك، وقف هارولد،

قريب الملك.

هارولد الشاب، فظّ، ذو ألوان زاهية،

يدخن بالزيت والمسك،

وبعنف الشباب اللطيف،

يشق طريقه عبر شعبه، مُطلقًا لسانه

إلى الأمام، حيث علقت رايات الأوسك، رمادية كخيوط العنكبوت.

ولكن عندما تقدم أمام صفه

على مسافة قصيرة،

انفجر وجهه الخالي من اللحية فرحًا،

وصاح: "يا لها من حطام تراب هنا؟ ما قيمة ملابسهم

أبيعها بأغنية".

أما كولان، فكان مُعلقًا بثياب

ممزقة كأوراق الخريف،

وكان رجاله جميعًا نحيفين كالقديسين،

وجميعهم فقراء كاللصوص. لم يحملوا أقواسًا ولا مقاليع ولا مسامير، بل رماحًا ورماحًا رديئة الصنع؛ ولم يحمل أحدٌ سيفًا سوى كولان،

57

وكان صدئًا نصلها.

وتحركت في عيني كولان ضحكةٌ غامضةٌ

وكان يتكلم بصوتٍ عالٍ، ولكن بخفةٍ

غير مكترثٍ بأن يُسمع صوته.

"يا إلهي، قلوبنا منكسرة،

ولهذا السبب، كما يُقال،

نُضيء شموعنا لذلك الرب

الذي ضحى بنفسه من أجل الخبز.

"ولكن مع أننا نتمسك بمرارةٍ

بأي أرضٍ يتركها الساكسونيون،

ومع أن أيرلندا ليست سوى أرض القديسين،

وويلز أرض اللصوص،

"أقول لكم إنكم ستتعبون من قول كلمتكم،

فإن الأرواح المنكوبة لا تضرب أبدًا

ولا الأيدي الهزيلة تمسك سيفًا.

"وإذا سافرتم يومًا ما في أيرلندا،

فيمكن أن تُقال النكتة:
هناك أرض القلوب المنكسرة،
وأرض الرؤوس المنكسرة".
ضحكة بربرية لا تقل فظاظة
خنقت هارولد كالطوفان،
"وهل أقاتل بفزاعات
أنا من دم غوثروم؟
"قد يكون لقاء المحاربين،
حيث ينتصر أفضل المحاربين؛
ولكن كل هذه الجيف التي يرميها الرجل
58
قبل أن يبدأ القتال".
وتوقف في خطواته السائرة،
وانتزع قوسًا بازدراء
من عبد حقير، وصوبه على
كولان، الذي أظلم مصيره؛ وأشرقت
نجوم الشر على كارليون،
في المكان الذي وُلد فيه.
فإن كولان لم يكن لديه قوس ولا مقلاع،
فكان يستند على سيف وحيد،
مثل آرثر على سيف إكسكاليبور
في معركة على شاطئ البحر.
إلى قرطه الذهبي الكبير، سحب هارولد ذيله الريشي،

فأطلق السهم بسرعة،

ولكن أسرع من ذلك انطلق الغيل.

دار سيفه حول رأسه، كعجلة عظيمة في الشمس، وأطلقه ببراعة عبر السماء، طارًا قبل أن ينطلق السهم - أصاب إيرل هارولد في عينه، وبدأ الدم يسيل. وقف كولان عاري الصدر أعزل، إيرل هارولد، كأنه يتألم، جاهدًا ليبتسم، ووضع يده على رأسه، تعثر وسقط فجأة ميتًا؛ وتحولت أزهار الأقحوان البيضاء الصغيرة إلى اللون الأحمر، والدم يسيل من دماغه. وعند عجيبة السيف، المُلقى كحجر للقتل، صرخ ألفريد: "من يريد أن يرى العلامات، عليه أن يبذل كل شيء. حقًا، لن يذوق الإنسان طعم النصر حتى يرمي سيفه بعيدًا." ثم قام ألفريد، أمير إنجلترا، وجميع الإيرلات المسيحيين، بخلع سيوفهم ورفعوها، وقدم كلٌّ منهم لكولان، ككأسٍ من الزبرجد واللؤلؤ. فقال الملك: "خذ سيفي، يا من فعلتَ هذا العملَ الناري، فهذه هي عادة المسيحيين، سواءً كانوا من الفولاذ أو من أقلام الكهنة، أن يُخرجوا قلوبهم من إدراكهم ليحصلوا على ما تتمناه قلوبهم. وسواءٌ أقسمتَ على جماعةٍ من الرهبان، أو زوجةٍ جميلةٍ لصديق، فهذه هي عادة المسيحيين، أن يدوم قسمهم إلى الأبد". "من أجل الحب، يا ربنا، في نهاية العالم، يجلس حصان أحمر كالعرش، بخوذة نحاسية وقوس من حديد، إلا سهمًا واحدًا.

"الحب بدرع القلب المنكسر، قوسه ينحني دائمًا، بسهم واحد لجائزة واحدة، والسهم الأخير الذي ينقسم ويطير، يأتي مع دوي انشقاق السماء، وصوت أرواح ممزقة.

60

"هكذا تكسب سيف الملك، من يلقي سيفك بعيدًا".

وأخذ الملك، بنظرة عابرة، فأسًا خشنًا من مؤخرة قريبة، وأداره إلى المعركة.

لأن سيوف إيرلز دانلاند التفت حول السيد الساقط.

أيقظت أول دم لحن البوق، كما في قافية الراهب أو رون الساحر،

تبدأ معركة إيثاندون

برمي السيف.

الكتاب السادس. إيثاندون: ذبح الزعماء

مع اجتياح البحر للرمال المنبسطة
اندفعت الحشود البحرية،
وصدم الجيشان بالغبار والضجيج،
على يسار الفارس اللاتيني،
وصرخ جميع أفراد عائلة الأمير هارولد العواء
على كولان والسيف.
واصطدموا في وسطهم بماركوس،
وعلى أوجبيه وغوثروم،
وشرقًا من هذا الاضطراب المركزي،
إلى أقصى اليمين وبصوت أضعف،
ضرب منزل إلف عازف القيثارة،
منزل إلدريد بصرخة.
وضرب المركز من التعب،
مصدًا الحشد الصارخ،
وذهبت يدا كولان بتعب
التي لوّحت بسيف الملك ألفريد.
ولكن كسحابة صباح
إلى الشرق بسهولة،
شق إلدريد الطويل بحر الرماح
كما تشق سفينة ضخمة البحر.
وجهه كغروب شمسٍ دامي،
كتفه منحنية كعرق ويسيكس،

يده كضربة مطرقة عاصفة؛

لا يستطيع الرجال إحصاء القمم التي كسرها،

بسرعةٍ تلاشت القمم.

كشيطان الطاعون الأبيض الطويل

يخرج من سماء آسيا،

62

قدمه على مدنٍ خربة

ورأسه في سحابةٍ من الذباب؛

أو سماء أرجوانية بلون الطاووس تُظلم

ببرج جرادٍ متحرك؛

أو رياح رملية سمراء طويلة وجافة،

كرايات الجحيم الحمراء تخفق وتطير،

عندما يخرج الموت من أرابي،

كان إلدريد في ساعته.

ولكن بينما كان يتحرك كالمذبحة

كان يتمتم كما لو كان نائمًا،

وكانت كلماته كلها من أسوارٍ منخفضة

وحقولٍ صغيرةٍ وأغنام.

حتى وهو يخطو كالوباء،

يخطو من الراين إلى روما،

كان يفكر في كم ستبلغ حبات الفاصولياء

إذا عاد إلى دياره.

نطقت بصلاة طفولية جامدة،

مملة كأجراس بعيدة،

تشكر إلهنا على الطعام الطيب

والذرة والأوقات الهادئة-

حتى سقطت على خوذة زعيم عظيم

محطمةً شعلته،

فانكسرت الخوذة وانكسر العظم

وانكسر السيف في يده.

ثم انطلقت من صراخ الشماليين

مُندفعةً نحوه شظايا

سبعة رماح كاملة، والسابع

لم يصنعه إنسان قط.

63

سبعة رماح، والسابع

صُنع كسيوف الجنيات،

وأُعطي للجني المغني

بواسطة بائعات الماء الوحشيات؛

بواسطة أولئك الذين يسكنون حيث

مياه الراين الضائعة

تتحرك بين جذور الأمم،

وتغرق كعلامة.

تحت كل القبور يتذمرون، يتذمرون ويثورون، يزحفون نحو الممالك المدفونة، ويزأرون كالأمطار الضائعة ويبكون، فوق سماء الجحيم الحمراء.

غرق الجان المغني ثلاث مرات،

وغسل كالميت على الرمال؛

وفي المرة الثالثة وجده الرجال

كان الرمح في يده.

دارت سبعة رماح حول إلدريد،

كدعامات حول صاري؛

ولكن كان هناك حزن على جانب البحر

لطعن الأخير.

ستة رماح غُرشت على إلدريد

تشققت وهو يضحك؛

رمح واحد غُرز في إلدريد،

ثلاثة أقدام من النصل والسهم. ومن قلبٍ عظيمٍ، انبعثت الرمح والنصل، ووقف بوجه رجلٍ ميت، ووقف قليلاً، وترنح-

64

ثم سقط، كما يسقط برج معركة،

على رماحٍ محطمةٍ ومتصارعة.

سقط من مدينةٍ لم تُقهر

تسرع نحو الأرض، تحمل

أعدادًا كبيرةً من الرجال الأحياء ذوي الشهرة الواسعة-

رماة ومهندسين.

وصعدت صيحةٌ عظيمةٌ من المسيحيين

في عذاب،

صارخين: "سقط برج ويسيكس

الذي وقف بجانب البحر".

في الوسط واليمين، شحب حرس ويسيكس من الشك والخوف،

وفشل الجناح في التقدم،

لأن ضوء الموت على رمح الساحر-

نجم الرمح الشرير.

صرخ ماركوس: "قف كالبلوط، قف كجدار روماني!

لقد سقط إلدرد الصالح-

هل أنت صالحٌ جدًا لتسقط؟

"عندما كنا ضعفاء بلا دماء

أعطاك الآن؛

يعامله القراصنة كخردة،

يا إلهي! هل أصبحت بلا دماء الآن؟"

"تمسكوا يا وولف وغورلياس، تمسكوا بالرماد!

يا عبيد، وسأحرركم!

اضربوا يا هيلدريد بقوة في أرض إنجلترا،

اقف يا غورث، قف يا غورلياس، قف يا غاوين!

امسك يا هافغار، باليد الأخرى يا

هالمر، انحنِ على ركبتيك!

65

"المصابيح تموت في بيوتكم،

الثمار على أغصانكم؛

حتى الآن يحترق قشكم القديم يا غورث،

الآن هو دينونة الأرض،

الآن هو قبضة الموت، الآن"!

لأن رعد القبطان،
وليس أقل من خط ويسيكس،
انحنى إلى الوراء ودار مسافةً للخلف
كما اندفع الجنّ برماح فتيات الراين،
وزأر كالراين.
لأن الرجال كانوا يحملون الجدران المتمايلة
من الغابات والغيوم العابرة،
بواسطة السهول المضطربة والبحر المتلاطم،
ومزجوا الله بالسحر،
الله بآلهة الشجرة المحترقة
وبرج الساحر والزجاج.
أما مارك فقد جاء من المدن المتلألئة
حيث تظهر التفاصيل البيضاء الساخنة،
حيث يمكن للرجال أن يعدّوا ويشرحوا،
ونما إيمانه في أرضٍ صلبة
من الشك والعقل والباطل،
حيث لا يمكن لأي إيمان آخر أن ينمو.
الإيمان الذي نما من بين كل المعتقدات
قبل لحظةٍ واحدةٍ قد انفجر
والإيمان الذي كان قائمًا على الكفر
قام حديدًا وحيدًا. هلال ويسيكس إلى الوراء
مُسحق، كما لو كان برمحة دموية
ذهب الجان يزأر ويهزأ،

66

ومارك ضد الجان لا يزال يصرخ،

مصدومًا، في منتصف مسيرته.

على الدرع والسيف الرومانيين مباشرةً

هل ركضت رماح فتيات الراين؛

لكن الدرع لم يتحرك أبدًا،

رن السيف ليقطع،

غنّى الراين العظيم إلى الأبد،

وتمّت أغاني الجان.

وارتفع رعد عظيم من المسيحيين

إلى السماء،

قائلين: "لقد كسر الله الرمح الشرير

قبل أن يسيل دم الرجل الصالح

جاف".

"رماحٌ تُهاجم!" صرخ مارك بحزم.

"الموت لآلهة الموت!

فوق عروش الهلاك والدماء

يمضي إلهٌ بارعٌ في صنعةٍ،

والذهب والحديد، والتراب والخشب،

يُحبُّ ويعمل.

"تزدهر الثمار في جميع مزارعكم،

وتُضاء المصابيح في كل مسكن؛

إله كل خيرٍ يُصنع على الأرض،

كل العجلات أو الشباك مهما كانت قيمتها،
إله السقف، غورث،
إله الطريق.
"إله ينحت الملوك في خشب البلوط
يكتب الأغاني على الرق،
إله الذهب والزجاج المشتعل،
يُوحد القوى
أكركوم، سكوتوم، غورلياس،
جلاديوم وبيلوم".
"٦٧
اندلعت حوله الصواعق والفولاذ،
وخلجان المعارك والنخيل،
وتمايل جميع ملوك البحر بين
غابات ويسيكس، وأذرعهم مرفوعة،
بوق اللغة الرومانية،
ورعد المزمور.
وفي وسط ذلك الميدان المتموج،
ركض أوجبيه غاضبًا،
يجلد مارك، الذي ردّ ضربته،
وكسر خوذته حول جبينه،
وكسره على ركبته.
ثم رفع أوجبيه درعه الضخم المستدير فوق رأسه؛
لكن مارك وضع إحدى قدميه على الدرع،

ورفع الأخرى على صخرة ممزقة،
وبرز فوق الميدان المتلاطم،
كتمثال على سطح.
يوجه ضربات بعيدة حول القتال،
كصواعق تجتاح،
كطيور حول ساحة المعركة،
بينما كان أوجبيه يتلوى تحت درعه
كسلحفاة في قبة.
لكن الكراهية في أوجبيه المدفون كانت قوية كالألم في الجحيم،
بيده العارية الوحشية من الداخل
مزق درع النحاس والجلد،
وضربة قاتلة في جانب الروماني
أُرسلت فجأةً وبصحة جيدة.
ثم ألقى التمثال العظيم على الدرع
68
نظرته الأخيرة
بعينٍ ثاقبةٍ وسلطانية؛
وسقط مارك، الرجل الإيطالي،
في بحرٍ من العذاب،
ومات بصمت.
وقفز أوجبيه حيًا،
وألقى بدرعه الضخم بعيدًا
طارقًا، كما لو أن لاعبًا يرمي

طبقًا يُصدر صوتًا في اللعب.

ورفع ذراعيه بثبات،

وزأر لجميع الدنماركيين:

"سقطت روما، نعم، سقطت

مدينة السهول**!**" ألا يتذكر أي مولود،

الذي يكسر الخشب أو يدفن،

كم وقفت على سطح العالم

كما وقف هو على درعي.

ينساها العالم الجديد المتوحش

كما يتلاشى الزبد على البحر،

كم وقفت بقدمها على الإنسان

كما وقف هو بقدمه عليّ.

لن يتحرك رجال الجنوب السمر بعد الآن

كالنمل في صفوف،

ليُهدئوا الرجال بالزيتون

أو يُجنّوا الرجال بالكروم.

لن تعبد مدن الجنوب البيضاء،

حيث يجري نهرا التيبر ونيلوس،

جالسين حول بحر سري

شمسًا سرية.

69

تزأر الآلهة العمياء لسقوط روما،

ولزوال المنتدى والإكليل،

لأن جليد الشمال قد انكسر،

وبحر الشمال قادم.

تزأر الآلهة العمياء وتهذي وتحلم

بجميع المدن تحت البحر،

لأن قلب الشمال قد انكسر،

ودم الشمال حر.

"من قبة العالم نهبط، أنهارًا تلو أنهار، وتحتنا تدور الطوائف والحشود، وفي الهلاك الفادح نغرق.

"من قبة العالم نهبط، ونهبط، نصطدم بالقارب الصغير، وعلى نهرٍ فيضانٍ يدور ويدور، حتى نصل إلى نهاية العالم، التي تنكسر فجأةً، كجرفٍ صخري.

وعندما نصل إلى نهاية العالم

أعتبره مناسبًا

أن نقفز كالنهر العذب،

يُطلق عليه طلقة صاخبة.

"لكن مهما حدث في نهاية العالم،

حيث لا يُضرب شيء ولا يُسمع صوته،

لن يكون، يا ثور، هؤلاء الرهبان

هؤلاء كلاب ويسيكس المتواضعة-

"لن يمنعنا هذا الصف الشاحب من الأيائل المسيحية،

هذا الخيط الأبيض من الرجال،

من نهاية العالم،

وما سيحدث حينها.

"لن يمنعنا سيف ألفريد القزم،

ولا تاج إيغبرت القزم،
الذي يهبط كالرعد،
ممزقًا العوالم وما تحتها،
عبر العالم وأسفله".
"كان هناك ذلك في الرجال المتوحشين خلفه،
وكان هناك ذلك في أغنيته الجامحة،
نبضٌ مُدوِّخ، دخانٌ مُسكر،
أذهل أهل ويسيكس حتى الموت،
وضرب رماحهم.
عبثًا، انقضَّ سيف كولان
وفأس ألفريد-
تدفق الدنماركيون كطاعونٍ بلا عقل،
ولم يعرفوا متى ماتوا.
قتل الأمير كولان عشرين منهم،
وجُرح على ركبته؛
قتل الملك ألفريد عشرين وسبعة
وحُمل عائدًا على شجرة.
إلى بوابة الغابة السوداء،
ارجعوا من الطريق الوحيد،
ارجعوا عند مكان طرق الفراق
دُحر فرسان المسيح.
وعندما وصلوا إلى طرق الفراق
سقطت أثقل مطرقة دوم،

فقد ضُرب الملك، أعمى، مُحاصرًا،
في الطريق الأيمن مع صفوفه،
لكن انحرف كولان في الاتجاه الآخر،
حيث ضرب ضرباتٍ قوية وسقط.

71

غابات الأشواك فوق إيثاندون
تنتصب حادةً وكثيفةً كالرماح،
في الليل، وفي ظلّ شجيرات الغاب وأضرار الغابات
تفرق الأصدقاء في السلاح؛
الضربات المدوية الضائعة، والإنذارات الأخيرة،
لم تصل إلى مسامع ألفريد.
غابات الأشواك فوق إيثاندون
تنتصب جامدةً كالمسامير في الدرع؛
أما الملك الأعلى فقد جاء في الصباح
رولاند الميت على بوقٍ مشكوكٍ فيه،
بدا لألفريد أنه تحملها بسهولة
الصرخة الأخيرة للغايل.

الكتاب السابع. إيثاندون: الهجمة الأخيرة

بعيدًا في صحراء وايت هورس داون
طفلٌ عاطلٌ وحيدًا
لعب لعبةً صغيرةً على مرّ الساعات،
وكان يقطع العشب بصبر،
ويدفع الحجر بصبر.
على الحافة الخضراء الهزيلة إلى الأبد،
حيث لامس الطباشير الفارغ العشب،
لعب الطفل، وحيدًا، إلهيًا،
كطفلٍ يلعب على الخط الأخير
الذي يشقّ الرمال والأمواج.
لأنه يسكن في انقساماتٍ عالية
بسيطةٌ جدًا يصعب فهمها،
يرى في أيّ صباحٍ من الغموض
مزق غير المخلوق البحر
بزئير، من الأرض.
خلال ساعات الطفولة الطويلة كالأيام
بنى برجًا واحدًا عبثًا-
كدّس حجارةً صغيرةً ليبني مدينةً،
وإلى الأبد سقطت الحجارة،
وكوّمها من جديد.
وملوكٌ قرمزيون على أبراج المعارك،
وقديسون على أبراج قوطية،

ونساكون على قمم ثلوجهم،
وأبطالٌ على محارقهم،
ووطنيون يمتطون جيادهم بفخر،
يُسرعون نحو المدينة المتلاطمة،
يمدون أيديهم، ويتوقون،
73
يبحثون عن الصعود إلى حيث لا يُرهقهم الزمن،
الطفل الذي لا يُرهق الزمن،
يُغني على إيقاع الحصان الأبيض.
وهذه كانت قوة ألفريد،
في نهاية الطريق؛
قوة هؤلاء الضاربين، حكماء كانوا أم شجعان،
كان الأقل بُعدًا عن الطفل،
يكدس الحجارة طوال اليوم.
لأن إلدريد قاتل كصيادٍ شرس
يقتل ويعود إلى دياره؛
وقاتل مارك لأن كل الأسلحة
تتردد كاسم روما.
وقاتل كولان بعقلٍ مُزدوج،
متقلب المزاج ومُبتهج بجنون؛
لكن ألفريد قاتل بشجاعة
كطفلٍ ظريفٍ يلعب.
رأى عجلاتٍ تنكسر، وأشغالاً تتراجع

وجميع الأشياء كما كانت؛
وكان قلبه مُلتفاً كالنصر
وبسيطاً كاليأس.
لذلك نُسي مارك،
الذي كان حكيماً بلسانه وشجاعاً؛
وانهارت الركام فوق كولان،
وانهار الصليب على قبر إلدريد.
رحلت أرواحهم العظيمة في مهب الريح،
ولم يكن لهم إرثٌ ولا قبر؛
وألفريد، المولود في وانتاج
يحكم إنجلترا حتى الهلاك.

74

لأنه في غابة كل المخاوف
كهبةٍ غريبةٍ من البحر،
أصابته تلك البراءة القديمة
التي تفوق الإتقان.
وكطفلٍ تتساقط أحجاره
يعيد تكديسها فوق فوق،
جاء الخراب والمطر الحارق،
عائداً كعودة العجلة،
ومختبئاً بين الأدغال والسراخس
بدأ حياته من جديد.
فكّ قرنه العاجي وابتسم، ولكن ليس بازدراء: "تنتهي معركة إيثاندون بنفخة بوق".

على حصان أسود في الطريق المزدوج، رأى غوثروم العظيم يمتطي،
سمع هديرًا من نحاس ورنينًا من فولاذ،
ضحكًا ونفخًا في البوق،
الوثني في كبريائه.
وتحرك رأس أوجبيه الأحمر المكروه
يتحدث أو يُنجز مهمة ما؛
لكن بدا الرجال مشتتين في الأدغال،
وقد أشعل بعضهم نارًا،
وفتح أحدهم برميلًا.
ووقفت عربات، واحدة أو اثنتان،
كسفن ضخمة في الأفق،
كما لو أن موقعًا متقدمًا قد خيّم
في الطرق المشقوقة ليلًا.
وفرحًا بالبقاء المفاجئ
من بين القلائل الذين هزمهم ألفريد،
جلس أحدهم على حجر ليتنهد،
وتسلل بعضهم على الطريق ليطير،
حتى وقف ألفريد في السرخس القريب
وضع قرنه على أفواههم ونفخ.
وسكنوا جميعًا كتماثيل-
أحدهم جالس على الحجر،
وآخر في منتصف سياج الأشواك الطويل،

وآخر بساق على جدار،
وثالث ينظر إلى الوراء، صغيرًا جدًا،
بعيدًا في الطريق، وحيدًا.
شفق رمادي ونجمة صفراء
معلقتان فوق الأشواك والتل؛
رمحان ودرع حرب مشقوق ملقاة
على الطريق كأنها مُلقاة،
خفت القرن في الغابة الرمادية،
ووقف الرجال الهاربون في مكانهم.
يا إخوة السلاح، قال ألفريد، على هذا الجانب يكمن العدو؛
هل العبودية والجوع أزهار،
حتى تقطفوها هكذا؟
فهل الأفضل
أن تُطعنوا بالعصي الدنماركية،
بعد أن تحفروا غرفة في خندق،
وتُطاردوا كساحرة عواء،
أم أن تُدخّنوا حتى الموت في الجحور؟
أم أن نسير جميعًا، ألفًا من الأقوياء، في الطريق المظلم إلى بيت الله،
ونُنشد أغنية ويسيكس؟
76
أن نُعرق عبيدًا لعِرق من العبيد،
ونُشرب العار؟
لا، يا إخوتي، بإذنكم، أعتقد

أن الموت أنسب للشرب،

ومع كل نجوم المسيح التي تغرب،

سيشرب الدنماركيون معي. أن تشيخَ مُذعورًا في أرضٍ مُحتلة، والشمسُ نفسها مُغطاةٌ بتاج، وأن ترى الأشجارَ رابضةً والماشيةَ تتسلل-

الموتُ أنبلُ شرابٍ للشرب،

وبموتٍ مُرتفعٍ على حافةِ الهاويةِ

ستدورُ تلكَ القارورةُ.

"على الرغمِ من موتِ جميعِ الفرسانِ

الذين كانَ المجدُ في كنههم،

على الرغمِ من موتِ جميعِ ثاناتِكُم المُهَدَّدينَ بسيفِ الرعدِ

بقلوبٍ مُتكبِّرةٍ بينَ الدنماركيين،

ما دامَ هناكَ رجلٌ، تبقى حربٌ عظيمة:

الآنَ حربُ الرجال.

"الرجالُ الذينَ يمزِّقونَ الأخاديد،

الرجالُ الذينَ يقطعونَ الأشجار،

عندما يُهلِكُ جميعُ أسيادِهم ويموتون

سيدوسُ عبيدُ الأرضِ

طغاةُ البحار.

"عجلةُ الصمتِ الهادرِ

من بينِ جميعِ الأعمالِ تحتَ الشمسِ،

تُسرِّعُ العملَ الجامحَ على الأقلِّ

كما يُنجزُ عملُ العالمِ أجمع.

" "لتقطع هيلدريد جدار الدرع

نظيفًا كما يقطع السياج؛

77

ولتقف غورث الصياد بثبات
كما تقف على حافة الهاوية؛
ولتركب غورلياس ملوك البحر
كما تركب غورلياس البحر،
ثم لتنطلق الجحيم والدنمارك،
تصرخ في وجه كل شياطينها أحياءً،
ولا يهمنا شيء".
وعندما انتهى كلام ألفريد
وقف ذلك الصف الضعيف بثبات،
كلٌ في مكانه بهراوة أو رمح،
وغضبٌ أعمق من خوفٍ عميق، وابتساماتٌ لاذعةٌ كالماء المالح.
ورفع الملك البوق وقال: "انظروا إلى بوق أبي،
الذي نفخ فيه إيغبرت في إمبراطوريته،
مرةً، عندما كان يركب عادةً،
مرتين عندما كان يركب للصيد،
وثلاث مرات في صباح المعركة.
"لكن مصائر أثقل قد حلت
بوق ملوك ويسيكس،
ونفختُ مرةً، علامة الركوب،
لأدعوكم إلى خط القتال
والمجد وكل الخيرات.

"والآن نفختان، علامة الصيد،
لأننا نتجه نحو الخليج؛
لكنني لن أنفخ النفخات الثلاث،
حتى نضيع أو يضيعوا.
"والآن أنفخ علامة الصيد،
أهاجم البعض بالقاعدة والعصا؛
78
ولكن عندما أنفخ علامة المعركة،
أهاجم الجميع واذهبوا إلى الله".
حدّق الدنماركيون في الطرق المزدوجة
حيث تسكعوا، جميعهم طلقاء،
كذلك الخط المظلم لآخر مرة
يثني ركبته ليهاجم-
ويلتقط أسلحته ببراعة،
ويتعجبون كيف ولماذا-
بهذه الدرجة، بحكمة وعصا،
انحدر شعب سلام الله هادرًا ليموت.
وعندما وُضع السهم الأخير
وتم إطلاقه،
وعندما علق الدرع المكسور على الصدر،
وتم دفن الرمح اليائس،
ونفخ البوق اليائس،
رفع الملك عينيه، وما رآه

كان نورًا عظيمًا كالموت،
لأن سيدتنا وقفت على الرايات الممزقة،
وحيدة وبريئة
كما كانت بين الجدران البيضاء
وزنابق الناصرة.
في لحظة واحدة في ضوء ساكن
رأى سيدتنا حينها،
كان ثوبها ناعمًا كسماء الغرب،
وكانت ملكة في غاية الأنوثة-
لكنها كانت ملكة الرجال.
فوق الغابة الحديدية
رأى وقفت السيدة،
٧٩
كانت عيناها حزينتين بلا فن،
وسبعة سيوف في قلبها-
إلا واحداً في يدها.
ثم انطلقت الهجمة الأخيرة على نحو أعمى،
وضاعت تمامًا من الخوف:
اقترب الدنماركيون، رنينٌ هادر،
وارتفعت عشرون هراوة فوق الملك،
وضربه أربعة دنماركيين، وهم يهللون،
وطعنه أوجبيه ذو الحجر والمقلاع برمح.
لكن الدنماركيين انفجروا ضاحكين،

وتأرجح الرمح الكبير على نطاق واسع،
والتصقت نصلته بشجرة متناثرة،
وصرخ كلا الجيشين فجأة،
وقفز ألفريد جانبًا.
لم يمضِ وقت طويل قبل أن يسحب أوجييه الأشعث رمحه-
عرف فأس الملك ألفريد في الأعلى،
سمعه يندفع في السماء،
فارتعد تحته صرخة-
مزقته حتى العمود الفقري:
وانقض عليه ألفريد ميتًا،
وحسم المعركة علامة.
ثم انفجرت المسيحية وتفجرت
كأنها الموت،
مُنهكة من مقلاع الإرادة،
وترتجف العصي، وتنسكب البراميل،
وتتأرجح العربات وتتحطم وتقتل
سائقيها في الأسفل.
تتراجع الحواجز، وتتمزق الرايات،
وتئن الدروع العظيمة كالجرس-
وتصهل الخيول كقرون كابوس
بصوت مرعب وطويل.
تصعد الخيول عالياً وتتأرجح وتغلي

وتكسر أعناقها الذهبية،

وتنزلق في مذبحة صاخبة،

إلى حيث يرقد الدم المرير،

حيث ذهب أوجييه سيراً على الأقدام ليموت،

على طريقة الدنماركيين القديمة.

"**المد العالي!"** صرخ الملك ألفريد.

"**المد العالي والانعطاف!"** مع انقلاب المد على البحار الرمادية الشاهقة، انظروا كيف يتمايلون بين الأشجار، كيف تضل رماحهم، كيف ترتطم ركبهم، كيف تحترق نيران حراستهم بشراسة!

"تعبر والدة الإله فوقهم،

تسير على الريح واللهب،

وتنحسر سحابة العاصفة عن المدينة والوادي،

ويدوس الحصان الأبيض وادي الحصان الأبيض،

وسنشرب جميعًا الجعة المسيحية

في القرية التي تحمل اسمنا.

"تعبر والدة الإله فوقهم،

على ملائكة مهيبة محمولة؛

ويهدر المزمور فوق الرون،

ويعبر الصليب فوق الشمس والقمر،

ينهي معركة إيثاندون

بنفخة بوق".

لأن الدنمركيين عادوا إلى الوراء في حالة من الفوضى،

81

منهكين من تكرار الحكاية،

أو مذهولين من الوقاحة والجعة،
أو مذهولين من السماء، أو شاحبين
أمام وجه الملك.
كان ألفريد في حالة يرثى لها في ساعته
يشهد الكاتب الشاحب،
كان أقوى في الهزيمة
من جميع الرجال في النصر،
وخلفه، جاء رجاله قتلة،
جافي الحناجر، يشربون الموت.
وقتل إدغار صاحب السفينة الذهبية بيده،
وأخذ لودفيج من كوخ سيدته،
وضرب هارمار في ساعته،
ووقف البرج وحيدًا مغرورًا-
البرج في خيلدرلاند.
وخرج تور من قاربه الصغير،
الذي رأوا النيل بعينيه،
وولف وصرخة الحرب على شفتيه،
وهاركو المولود في الكسوف،
الذي سد نهر السين بـ بوارج
طوفت باريس على الجزيرة.
وذبح هاكون صاحب أغنية الحصاد،
وديرك من نهر الإلب،
وكنوت الذي أذاب جرس دورهام.

وسقط فولك وأوسكار الناري،
وغودريك وسيغال،
وأورييل صاحب شجرة الطقسوس.
وغنوا المذبحة بأعلى صوت،
وسقط القتلى بأسرع ما يمكن،

82

عندما ضربت عجيبةٌ مُدوّيةٌ من حنجرة طريق الغابة المُسودّة
مؤخرة الدنماركيين.
فجُثث جماعة كولان - التي تاهت في الطريق الآخر-
تجمعت وكبروا وسمعت الضجيج،
وتدفقت صيحاتٌ هادرة،
عراةً كأقاربهم البريطانيين القدامى،
ومُشرقةً بالدم كنبات الود.
وعراةً، مُدمّى، ومُحلقين
حملوا أمام جماعتهم
جثمان السيد الجبار،
كولان من كارليون وجيشه،
الذي حمل الملك سيف ألفريد القتالي مكسور في يده اليسرى.
ورافقته موسيقى غريبة، صاخبة وبعيدة بشكل غريب؛
مزامير الغرب الصاخبة
و،
بصوتٍ حادٍ لا يُصغي إليه،
غنّى بصوتٍ عالٍ مُميتٍ على كل يد

عندما ذهب الميت إلى الحرب.

مُحاصرًا بين الشبح والقراصنة،

سقط رجالٌ شجعان وماتوا؛

وقد يرتجف أمراء البحر المتوحشون

كما تُنادي مزامير حرب الغيل المروعة

على قرون وادي الحصان الأبيض،

وتستجيب جميع الأبواق.

وهيلدريد، حارس الأشجار المسكين

قتل أربعة قادة،

وأسقط هالمار ثلاثة آخرين،

83

وتردد الإيرلات العظماء جيئةً وذهابًا

من أجل الأحياء والأموات.

وأمسك غورلياس بالراية العظيمة،

غراب أودين، مُمزقًا؛

وتغيرت عينا غوثروم،

لأول مرة منذ الصباح.

كما تدور عجلة العاصفة

ترفع السماء شامخةً،

وتمتد فوقنا منحدرات السحب الشاحبة المضيئة كأسوار عظيمة،

كما لو أن السماوات على وشك السقوط.

وكما أن سماءً شاهقةً مائلةً كهذه

ترسل ثلجًا أو ضوءًا مؤكدًا،

هكذا تغيرت عيون غوثروم،
وكان التحول أكثر يقينًا وغرابةً
من ألف رجلٍ هارب.
فما إن ينشق قاع السماء،
وتشرق نار الجحيم عبر البحر،
أو تنظر النجوم من خلال ركب الأرض الممزقة،
حتى يأتي تمزيق اليقينيات،
كما عندما يرى رجلٌ حكيمٌ حقًا
ما هو أحكم منه.
وضع حصانه في مؤخرة المعركة
حتى غوثروم الدنماركي،
وكما سقط فرسه،
برجٌ ساقطٌ فوق أرضٍ كثيرة،
لكن غورث الصياد وضع يده
على لجام هذا اللجام.
كان الملك غوثروم سيدًا عظيمًا،
84
وأعلى من آلهته-
أضحك البابوات،
وبخ القديسين بالعصي،
واتخذ من عالمنا الأجوف كأسًا لنبيذه؛
في شق الطرق الخشبية
جاءته إشارة.

في ويسيكس، في الغابة،
في كسر الرماح،
وضعنا إشارة على غوثروم
لتتوهج ألف عام.
حيث تتدافع السروج العالية
وتتطاير ذيول الخيول،
ارتفعت إلى الطيور المحلقة
زئير الموتى والمحتضرين؛
في صمم وبكاء شديد
وضعنا عليه علامة الصليب.
بعيدًا إلى النهر المتعرج
سال الدم لأيام،
عندما وضعنا الصليب على غوثروم
في شق الطرق.

الكتاب الثامن: مطاردة الحصان

في سنوات سلام ويسيكس،

عندما كان الملك الصالح جالسًا في منزله؛

في السنوات التي تلت تلك النعمة الدموية

عندما وقفت تلك التي تقف فوق القمر

فوق الموت في إيثاندون

ورأت مملكته قادمة-

عندما فر شعب البحر الوثني

إلى أسوارهم،

مسمّرين هناك بالرماح للتشبث

وضربت العجائب ملك القراصنة،

وأحضرته إلى معموديته

ونهاية كل غاراته.

)فحتى يُمحى لوح الليل الأزرق من آخر نجومه تمامًا، وتُكتب عليه علامات جديدة شرسة للقراءة، لن تُصغي العيون بذهول، كما لو أن رجلًا عظيمًا يعرف حقًا شيئًا أعظم منه(.

ووصل إلى ساحته، مُزيل الميرون، سادته من جميع البلاد البعيدة،

ورُسم خط شمال غربي، حرر إمبراطورية الملك إيغبرت،

وأعطى جميع الأراضي الواقعة على ضفاف البحر الشمالي

لأبناء نجم الشمال.

في أيام ألفريد،

عندما تم كل هذا،

وكانت ويسيكس في رقعة من السلام،

ككلب في رقعة من الشمس—

86

جلس الملك في بستانه،
بين التفاح الأخضر والأحمر،
والكتاب الصغير في صدره
وأشعة الشمس على رأسه.
وجمع أغاني البسطاء
الذين يتأرجحون بخوذهم وخوذاتهم،
وصدقاته التي كان يوزعها كمسيحي
كأنه نهرٌ يزخر بالأسماك يجري؛
وقدّم هدايا لرجلٍ متسول
كإلهٍ تائه.
وحصل على قوانين الملوك القدماء الصالحة،
ككنزٍ من القبور؛
وارتجف لصوصٌ كثيرون في زاويةٍ شائكة،
أو نبلاءٌ في برجٍ مُلطخٍ بالبحر،
لفتح كتابه الحديدي،
ولجمع المصير المحتوم.
حينها سيأتي الرجال من أقاصي الأرض،
الذين جلس الملك مُرحّبًا بهم،
وسيذهب الرجال إلى أقاصي الأرض
بفضل كلمة الملك.
لأنّ الناس قد واجهوا ألفريد
الذين أُلقيت رماحهم

على وحوشٍ تُفجّر البحر،

وعلى كراكنٍ ولفائفٍ من الغموض.

أو دُفعوا في ثلوجٍ قديمةٍ

شعرٍ أبيضٍ للعالم.

وطرق بعضهم البوابات الشمالية

لقاع الجليد الأقصى،

حيث تتجمد الأسماك ويسود الزبد،

87

ويضيق العالم الواسع في مساره،

والبحر الآخر خلف العالم

يصرخ من خلال باب مغلق.

وخرج رجال من وجه ألفريد،

حتى اللوردات العظماء حاملي الهدايا،

ليس إلى روما فقط، بل إلى أكثر جرأة،

إلى قصور العصور القديمة العالية الحارة،

من الزنوج المتشحين بأقمشة من ذهب،

الصمت، والسيوف المعقوفة،

الستائر المخطوطة والحدائق السرية

والسماوات المليئة بالحشرات-

حيث تمتد السهول النارية إلى ما لا نهاية

إلى بلاد الكاهن يوحنا الأرجوانية

وإلى أسوار الفردوس.

وعرف عظمة الأرض العظيمة،

حيث بدأ الملوك يحكمون؛

حيث في هجمة ليلية، بلا اسم، من القوط والغال الكئيبين، جاء شارلمان أبيضًا، فوق الشموع المشتعلة، كأنه في رؤيا.

وعندما رأى الرجال مثل هذه السفارات، تحدثوا إلى الملك وقالوا:

"الفولاذ الذي غنى لحنًا عذبًا

على أشداون وإيثاندون،

لماذا يُعلق غمده سريعًا،

ثقيلًا كالرصاص؟

"لماذا يسكن الدنماركيون شمال إنجلترا،

ويصعدون إلى النهر؟

ثلاث مسيرات أخرى كهذه

ستنهيهم؛ وسيُدرك البيكتيون

88

سيطرتنا؛ وستصعد أقدامنا العرش

في جبال ستراثكلايد".

وألفريد في البستان،

بين التفاح الأخضر والأحمر،

والكتاب الصغير في صدره،

ينظر إلى الأوراق الخضراء ويقول:

"عندما تفشل كل الفلسفات،

ستكون هذه الكلمة وحدها كافية؛

"أن يشعر الحكيم بأنه صغير جدًا على الحياة، وأن الأحمق كبير جدًا عليها. آسيا وجميع السهول الإمبراطورية

صغيرة جدًا على أحمق؛
لولا رجل واحد يرى
جزيرة أثيلني الصغيرة
أرض واسعة جدًا لحكمها.
لعلّها كانت أفضل
عندما بنيتُ حصني هناك،
في المياه الشاسعة المليئة بالقصب،
وقفتُ على جداري الطيني وصرختُ:
"خذوا إنجلترا كلها، من مدّ إلى مدّ-
لتكن أثيلني نصيبي".
هؤلاء المجانين المتدافعون على العرش-
ظالمون ومظلومون-
اصطفوا على ضفاف أثيلني،
ولوّحوا وناحوا بلا انقطاع،
حيث يتجه النهر إلى بحر واسع،
بجوار جزيرة المباركين.
جزيرة ككتاب صغير
مليء بمئة حكاية،
89
مثل الصفحة المذهبة التي يكتبها الرهبان الطيبون،
كلها أصغر من طائر النمنمة،
ولكن فيها مدن شاهقة، وشهب، و يا رجال،
وشمسًا وحيتانًا تنفث الماء؛

"أرضٌ عليها نورٌ

في النهر مظلمةٌ سريعة،

جزيرةٌ في غاية الوضوح مُضاءة،

لأن قديسًا وقف فيها؛

حيث الزهور زهورٌ حقًّا ومناسبة،

وأخيرًا الأشجار أشجار.

"هكذا كانت جزيرة قديس؛

لكنني ملكٌ عادي،

وسأجعل أسواري متينة

من بلدة وانتاج إلى بليموث بلاف،

لأنني لستُ حكيمًا بما يكفي

لحكم شيءٍ صغيرٍ كهذا".

وحدث في أيام ألفريد، في أيام راحته، أنه كما كانت العادات القديمة في نظره طريقًا مستقيمًا ونورًا ثابتًا، أمرهم بالحفاظ على الحصان الأبيض أبيضًا كأول ريشة من الثلج.

ومباشرة إلى ضوء المشعل الأحمر،

من عناء الصباح الرمادي،

جردوا الحصان الأبيض من العشب

كما يجردونه إلى هذا اليوم.

وتحت ضوء المشعل الأحمر،

راح يحلم كالمُكْلِم،

برفاقه القدامى الذين قُتِلوا كالملوك،

وبالأشياء الثمينة التي لا رجعة فيها

90

بقلبٍ بلا فتحات،

بل مُغلق بإحكام، ممتلئ.

ولامس ضوء المشعل شعره الشاحب

حيث خيّم على الفضة غيومٌ ذهبية،

وكان إطار وجهه مصنوعًا من الحبال،

واستدار سيد شاب بين النبلاء

وقال: "الملك شيخٌ."

وبينما هو يقول ذلك، اندفعت رسالةٌ إلى الأمام،

تصرخ: "يا سيدي الملك، يا سيدي الملك، يا أهل القرى،

في رعبٍ وظلالٍ من الأذى،

أحرقوا مزرعة براند أوف أينجر-

لقد عاد الدنماركيون!

"الدنماركيون يسحقون ملائكة الشرق البيض

في ست معارك على السهول،

يدمرون العالم حول نهر التايمز،

يدمرون الدنماركيين شرقًا - الدنماركيون"!

وبينما سقط على ركبةٍ واحدة،

انفجرت ثيناتٌ غاضبةً،

تصرخ: "ليحرس الحراس، وليحرس الشريفون المقاطعة."

لكن الإيرل الشاب قال: "ليحرس القديسون،

قديسو إنجلترا،

الأرض التي نرهنهم فيها بالذهب؛ تتلاشى السدود، ويشيخ الملك،

وهذا صعبٌ حقًا،

"أن لا نتخلى عنها أبدًا؛
فعندما يشبّ رأسه
لا يستطيع أن يقول لهم إنه ضرب،
91
وسلم بيده التي طعنت حلقه،
"اذهبوا ولا تعودوا".
ثم ابتسم ألفريد. وكانت ابتسامته
كشمسٍ للقوة.
لكنه أشار فقط: أمرهم بالانتباه
إلى فلاحي بيركشاير،
الذين قطفوا عشبة الحشائش القديمة
كما يقطفونها حتى هذه الساعة.
"هل ستفارقون الحشائش إلى الأبد؟
أم ستُظهرون الأقحوان عند الباب؟
أم ستأمرون العشب الجريء
بالذهاب ولا تعودوا؟
"بهذا القدر من الثبات والكتمان
ازدهر الإرهاب والسرقة؛
ستحدث الخيانة والعار
بينما تزهر عشبة واحدة في مستنقع؛
"وكسكون العشب الجامد
سكون الطغيان.
"فوق أرواحنا البيضاء أيضًا

تموج البدع الجامحة
بفخرٍ أكبر من ريش العشب،
وأحزن من تنهداتهم.
"وأنا أركب ضد الغارة،
وأنتم لا تعرفون أين أنا؛
ولكنكم ستعرفون في يومٍ أو عام،
عندما ينمو نجمٌ أخضر من العشب هنا؛
لقد هاجمتكم الفوضى، أيها الجواد والرمح،
فأس المعركة وكبش السحق.
"وحتى لو تغيرت السماوات وذابت الإمبراطوريات،
92
ستظل هذه الكلمة صحيحة:
لو أردنا حصان الماضي،
فنظفوا الحصان من جديد.
"ذات مرةٍ اتبعتُ نجمًا راقصًا
بدا وكأنه يُغني ويُومئ،
ويُدق على الأرض ناقوس كل شر؛
لكنني الآن أعرف إن لم تُنظفوا جيدًا
سينمو الصدأ الأحمر على جرس الله العظيم
وسينمو العشب في شوارع الله".
توقف ألفريد؛ وفوق رأسه
القباب الخضراء الفخمة، التلال،
أظهرت الجحافل الأولى من الحشود،

تسير في عجلة ومرارة
من أجل المسيح والتاج.
وراء كهف كولان،
بجوار إلدريد على البحر،
نهض رجالٌ امتلكوا عصا الملك ألفريد،
من قفار إكس العاصفة التي لم تطأها قدم،
أو حيث يحترق شوك قبر الرب
فوق غلاستونبري.
بعيدًا شمالًا وبعيدًا غربًا
اقتربت القبائل البعيدة،
سهولٌ وراء سهول، سقطت وراء سقوط،
حتى أن الرجل عند غروب الشمس يرى بوضوح،
والمدن الصغيرة الملونة التي تسكن
في زوايا السماء.
لكن الظلام والكثافة، كما احتشد الجيش،
مع الطبل والمشعل والسيف،
جلس الملك ذو العينين الساكنتين يفكر،
كمن يراقب شيئًا حيًا،

93

الطباشير المغسول؛ وهو قال: "حتى لو وهبتُ هذه الأرض لسيدتنا، التي ساعدتني في أثيلني، حتى لو لم يطأ أحدٌ جِدارًا أكثر من حديقة والدة الإله، بين ضفاف نهر التايمز والبحر، فأنا أعلم أن الأعشاب ستنمو فيها أسرع مما يحرقه البشر، وحتى لو تفرقوا الآن ورحلوا، ففي قرنٍ بعيدٍ حزينٍ بطيء، لديّ رؤيا، وأعلم أن الوثنيين سيعودون. لن يأتوا بسفن حربية، ولن يُبددوا بالمحروقات، بل ستكون الكتب كل طعامهم، والحبر على أيديهم. ليس بروح الصيادين، ولا

بمهارةٍ وحشيةٍ في الحرب، بل بترتيب كل شيء بكلماتٍ ميتة، سيصنعون من الوحوش والطيور خيوطًا، وعجلاتٍ من الرياح والنجوم. سيأتون لطفاءً ككتبة رهبان، ومعهم مخطوطاتٌ وأقلامٌ كثيرة. وستلتفتون إلى الوراء وتنظرون، مشتاقين إلى أحد أيام ألفريد، حين كان الوثنيون بشرًا.

"الشمس الحبيبة تتقزم أمام شموسٍ مُرعبة، كأزهارٍ شرسة على سيقانها،

94

الأرض ضائعة صغيرة كحبة بازلاء

في غابة السماء الشاهقة،

-هذه هي الأعشاب الصغيرة التي سترون

تزحف، تُغطي الطباشير.

"لكن حتى لو عبروا بحر القديسة مريم،

أو سرقوا جناح القديس ميخائيل-

حتى لو رفعوا فوقنا عجائب،

أعظم من فيرجيليوس العظيم

الذي صنعه للملك الروماني؛

"بهذه العلامة ستعرفونهم،

كسر السيف،

ولن يعود الإنسان فارسًا حرًا،

يحب سيده أو يكرهه.

"نعم، ستكون هذه علامتهم،

علامة النار المحتضرة؛

ويُخلق الإنسان كأحمق،

لا يعرف أباه.

" "حتى لو جاؤوا بلفافة وقلم،

وكانوا جادين ككاتب حليق،

بهذه العلامة ستعرفهم،

أنهم يُفسدون ويُظلمون؛

"بأن كل البشر مرتبطون بلا شيء،

بأنهم عبيد بلا سيد،

بأن عالمًا أعمى أحمق مُطاع،

أعمى من أن يُبغض؛

"بأن الرعب والقصص القاسية

عن اللعنة في العظام والأقارب،

بأن الغربة والضعف المُنتصر،

ملعونون منذ البداية،

95

بتفاصيل الخطيئة،

وإنكار الخطيئة؛

"بأن الفكر خراب زاحف،

بأن الحياة مستنقع قافز،

بأن القلب المكسور في صدر العالم،

ونهاية رغبة العالم؛

"بأن الله والإنسان المُهان،

بأن الموت والحياة الباطلة،

اعلم

يا أيها البربري العجوز،

ها هو البربري يعود-

"متى يُكثر الحديث عن التيار والمد،

والحكمة والقدر،

هلمّوا أيها الوثني الخالد

الذي هو أشد حزنًا من البحر.

"بأي حكماء سيُهزم،

أو يُقام الصليب من جديد،

أو بصدقة أو فروسية،

لا تُخبرني رؤيتي؛ ولا أرى

أكثر من ذلك؛ بل انطلق الآن مُترددًا

إلى معركة السهل".

وحُفرت حافةُ عشبِ الوادي العظيمِ كعشبٍ منثور، بينما احتشدت الجيوشُ من قريبٍ وبعيد، من غاباتِ النجمِ الغربيّ الدافئة، وخرجَ الملكُ إلى معركتهِ الأخيرةِ على صهوةِ جوادٍ رماديٍّ طويلٍ عند الفجر. وجاءت أنباءُ قتالهِ البعيدِ ببطءٍ وترددٍ من أرضِ الساكسونيين الشرقيين، من شروقِ الشمسِ والبحر. من سهولِ شروقِ الشمسِ الأبيض، ومن تاجِ القديسِ إدموند الحزين، حيثُ بركُ إسيكسَ شاحبةٌ ومتألقةٌ، خارجَ مدينةِ لندن - في شظايا عظيمةٍ ومشكوكٍ فيها، كحروبٍ باهتةٍ أو أسطورية، تسلّقَ التلالَ القديمةَ التي ذاع صيتها، حيثُ الجبينُ الأصلعُ لوادي الحصانِ الأبيضِ قريبٌ من النجومِ الباردة. ولكن بعيدًا في الأماكنِ الشرقيةِ، سارت ريحُ الموتِ عاليًا، ودُفعت غارةٌ عبرَ الغزوةِ، السماءُ احمرّ وجهها وتصاعد الدخان،

ومرّ الحصان الرمادي الطويل.

انفتحت أبواب النهر العظيم كما لو كان بزورق،

وانكمشت الجدران مكتظة، كما يقول الكتبة،

وبدت الأبراج العالية المكتظة بالقبائل وكأنها تميل من الهجوم.

تدحرج الدخان كسماء متمردة،

وانحنى فوق ألسنة اللهب الملونة،

وانعكاسه في أحلام أرجوانية وحشية

في برك نهر التايمز العظيمة.

كانت الحرب على أسوار لندن مدوية،

ومدوية في بوابات لندن،

ومدوية ملوك البحر في السحاب

اخترقوا آلهتهم الحالمة، وصرخوا بصوت عالٍ

على مصائرهم المروعة.

97

وطوال الوقت على تل الحصان الأبيض،

كان الحصان يرقد طويلًا شاحبًا،

وزحف العشب وزحف الفطر،

والحميض الصغير، بينما كان جميع الرجال نائمين،

يُنجز عمل الإنسان.

بإصبع مخملي، وقدم مخملية،

الناعم الشرس ثم زحفت الطحالب على المرج الأبيض الواسع. سعى جميع الناس جاهدين لتقشيره، والعشب، كعجلة ساحرة خضراء عظيمة، حلَّ مشاكل البشر.

وازدهر البرسيم والشوك الصامت،

وتفتحت البراعم في صمت،

دون اكتراث يُذكر بوادي التايمز

أو ما قد يكون هناك-

الذي يمتد على طول النهر المتسع،

في السهول الشرقية لتاج

يرتفع في سماء أرجوانية باهتة

برج من الدخان كالعاج؛
وتغير الدخان ومرت الريح،
واستولت المملكة على مدينة لندن.